

إبداعات عالمية

وجهان لحواء

(رواية)

تأليف:

أمريتا بريتام

ترجمة:

سليمان الخليفي

مراجعة:

عامر الزهير



٣٢٦

وجهان لحواء

(رواية)

تأليف:

أمريتا بريتام

ترجمة:

سليمان الخليفي

مراجعة:

عامر الزهير

المراسلات:

توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب ٢٨٦٢٣ - الصفاة - الكويت 13147

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي
أسسها الأستاذ / أحمد مشاري العدواني
(١٩٢٣ - ١٩٩٠)

وجهان لحواء

Two Faces of Eve 1971

تأليف: آمريتا بريتام

ترجمة: سليمان الخليفي

الطبعة الأولى - الكويت:

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ٢٠٠٠م

سلسلة إبداعات عالمية العدد ٣٢٦

ردمك ٩ - ٠٤٤ - ٠ - ٩٩٩٠٦

ISBN 99906 - 0 - 044 - 9

العنوان الأصلي

Two Faces of Eve 1971

تصـديـر

ومازلنا في إبداعات عالمية نحاول ونجتهد لتقديم أنواعا من الإبداعات العالمية من لغات مختلفة وآداب متنوعة. وبين يديك عزيزي القارئ في هذا العدد قصتان من الأدب الهندي المعاصر الأولى (وجهان لحواء)، والثانية (هوائي) لواحدة من أشهر كاتبات الرواية والقصة والشعر في الثقافة الهندية المعاصرة هي الكاتبة آمريتا بريتام. وقد ترجمها عن اللغة الأم G.S.P.Suri، وترجمها للعربية عن النص الإنجليزي القاص الكويتي سليمان الخليفي.

إنها خطوة على الطريق في تقديم الجديد من آداب العالم.

رئيس التحرير

الفصـــــل الأول

لقد شدّها مرأى وليدها من مياه استغراقها العميقة، وحطها على الشاطئ. تنفست الصعداء، إلا أن أنيتا أخذت تشعر بدرجة أقل كامرأة، وأكثر كسمكة تتلوى بألم إثر إلقائها على اليابسة. وتطلعت ثانية بتركيز في وجه طفلها، فكانت كما لو أن السمكة التي تنازع قد أعيدت فجأة إلى بيئتها الطبيعية. تنفست أنيتا ثانية بارتياح، فقط لتعود إلى وعيها... إنها لم تكن سمكة، وإنما امرأة وقعت في مياه عميقة.

أنا لست سمكة، أو طيراً، ولا حتى حيوانا. تأملت أنيتا، وأغمضت عينيها بذهول.

دخل زوج أنيتا إلى الغرفة ليضع يده على جبينها. جفلت ففتحت عينيها، لكنها شعرت بعدم جرأتها على النظر في عينيه، وربما لم يكن ذلك ضرورياً. كانت على وشك إغماض عينيها ثانية عندما سيطر عليها شعور مفاجئ وتّر أعصابها من قمة رأسها حتى أخمص قدميها، لينفذ إلى أعماق عقلها. سحبت طرف اللحاف لتغطي وجه الطفل، كمن يحمي، بذلك، الجمال من حسد حاسد، أو كمن يغطي قبحه خوفا على نفسه من الازدراء. إن الهوة بين الجمال والقبح لشاقة على عقل أنيتا المتعب، لو أراد ردمها. ولذا أرخت جفنيها مرة أخرى.

لقد أوشكت أوصالها المنهكة من الألم أن تسترخي في النوم عندما أبصرت امرأة تقف بخفة عند قدم سريرها. انحرفت المرأة إلى حيث يرقد طفل أنيتا بجانبها، وعندها، وبحركة واحدة خاطفة، انتزعت الوليد وفرّت هاربة. تفجرت فجأة طاقة كامنة في جسد أنيتا وراحت تلاحق المرأة بمطاردة حثيثة وهي تصرخ، «ولدي!»

كانت المرأة الهاربة تركض باضطراب دون أن تتفوه بكلمة أو تلتفت مرّة إلى الوراء، وشعرها المنفوش يتطاير لدى ركضها. لاحت الظلمة

أمام ناظري أنيتا، ولكنها تجاوزت ذلك بإرادة ومجهود خارقين. إن دفقة من جزع حارق تجري في دمائها، لكن لا ينبغي أن تفقد أثر المرأة.

أصبحت الآن في بقعة مهجورة حيث لا شجر هناك ولا أي نوع من الغطاء. لن يغيب منظر ظهر المرأة عن بصر أنيتا. غارت قدماها في الرمال الناعمة ـ وكذلك قدما المرأة الأخرى ـ مما سبب لهما مشية مترنحة. كلتاهما تلهثان. عند ذلك بدأ الطفل بالبكاء. ربما لشعوره بأنه يُعصر محشورا بين ذراعي المرأة، وربما لكونه جائعاً. أخذت المرأة تتردد ثم توقفت في مكانها، وبدأت تربت على الطفل.

أبصرت أنيتا المرأة وهي تفك أزرّة قميصها وتجلس على الرمال، ثم وهي ترضع الطفل ثديها.

ما أن اقتربت أنيتا منها حتى أمرتها المرأة بإيماءة من يديها لكي تبقى هادئة حتى يتغذى الطفل دونما إزعاج. بقيت أنيتا تراقب الطفل وهو يرضع من صدر المرأة برضا واطمئنان. كان ضوء القمر الناعم يكشف خد الطفل الأيسر، فاستطاعت أن تبصر بعضا من قطرات الحليب يسيل ببطء من فمه الصغير.

«لم لا تجلسين؟» قالت المرأة برقة، مشيرة لأنيتا تجاه الرمل عند قدميها.

كادت ساقا أنيتا المتعبتان أن تتهاويا بها على الرمل.

«لم أنت خائفة مني؟ لسنا عدوّتين». قالت المرأة ذلك بهدوء، فيما أخذت تهدهد رأس الطفل وتمسّد شعره الخفيف.

«لم هربت بطفلي؟» سألتها أنيتا بمرارة، فيما هي تستشعر سرا قوة أعضائها، وما إذا كانت قادرة على اختطاف الوليد من بين ذراعي المرأة والإفلات به. ابتسمت المرأة، متسائلة، «ما الذي قلته؟»

«قلت، لماذا هربت بطفلي؟»

«لأنه طفلي»

«كلا، بل طفلي»

«لم تجادلين يا أنيتا؟ أنت تعلمين علم اليقين أنه طفلي»

«اسألي جسدي المضني، أو اسألي أية قابلة في الدنيا، فستخبرك أنه طفلي أنا»

«لست في حاجة إلى شهادة أي كان»، شهقت المرأة بازدراء وهي تحدق في وجه أنيتا. «إن شهادة أي كان في هذا العالم ليست بذات قيمة بالنسبة لي»

رمشت أنيتا وسألت، «وعليه؟»

«أريدك أن تعترفي. صحيح أن جسدك أنهكه الألم، ولكن ماذا عن قلبي؟ من ذا سيبصر الدماء تنز من قلبي؟»

ابتسمت أنيتا بانتصار، «اللحم والعظام ينشئان الجنين، والجسد يتمخض عن مولده، وليس القلب»

ابتسمت المرأة وسألت: «إن كان ذلك حقا، فلماذا غطيت وجه الطفل عندما جاء زوجك لرؤيته هذه الليلة؟»

تفادت أنيتا تحديقها، ثم سألت، وهي تتطلع إلى وجه الطفل تحت ضوء القمر: «هل نظرت إلى وجهه، إلى ملامحه؟»

«وكيف لا؟ كنت أتطلع إلى وجهه منذ ولد، ولا أشبع من التطلع إليه». قالت ذلك وهي تدير وجه الطفل، فشعّ عليه ضوء البدر وأضاءه.

كان الطفل قد أخذ كفايته من الحليب وأغفى.

«لم تلاحظي ملامحه». قالت أنيتا مقتربة من الطفل: «أنفه المنحوت، الجبين العريض، الذقن الصغير المستدير، تلك العينان الواسعتان... تماما..» وانزلقت إلى تفكير حالم.

«استمري. تماما مثل من؟» أخذت تحثّها: «لم لا تنطقين الآن؟»

«مثل ساجار» قالت أنيتا دون وعي.

فانفجرت المرأة ضاحكة، ثم أمسكت بكف أنيتا وضغطته كتعبير عن حجتها وتعاطفها: «أنت تعرفين بأنك لم تمسّي ساجار بعد»

«ذلك ما يحيرني... أيضا»

«إذن، أي علم قد يُسلّم بإمكان ميلاد طفل دون أن يلتقي جسد بجسد؟»

«لا يوجد»

«وبمنطق أي علم، فإن هذا الطفل لا يكون إلا لزوجك؟ لابد أن يكون طفل رامپال ساجديفا؟»

«ولكن ملامحه...»

«ملامحه أشبه بساجار»

«يمكنك أن تتأكدي بنفسك»

«إذن، إن كنت تسلّمين بذلك، فلم لا تتقبلين فكرة كون بدنك ليس أكثر تشكيلا من قلبك لهذا الطفل؟ لا يتمخض الطفل عن الجسد بأكثر مما هو عن الروح.»

«ربما»

«إذن، لماذا تنازعينني؟ لماذا تتنازعين مع نفسك أنت؟»

«كلا. لست معك في نزاع. وأعترف أنه ليس بطفلي أكثر مما هو طفلك. لكن إلى أين تأخذينه؟»

«إلى أين؟ لقد أردت فقط أن أطلع ساجار على وجهه لدقيقتين»

قبّلت أنيتا الطفل النائم على الفم فانحدرت دموعها على جبينه: «لن يعتبرك العالم طفلا لساجار... وحتى ساجار لن يعتبرك له...»

كانت أنيتا تنشج عندما أخذت تصحو. راحت القابلة التي تقف إلى جوار فراشها تعلّق: «لا ينبغي أن تُترك امرأة في مثل هذه الحال وحيدة. انظر إليها، تبكي حتى وهي نائمة».

الفصـــــل الثاني

جثم ثقل الكابوس فوق عقل أنيتا طوال النهار. لكن في الليلة التالية أزاحت عبئه عنها عندما لامست أنيتا بأناملها الحالكة.

لم تدرك أنيتا أبدا متى فقدت ساعة الزمن، بدقاتها البعيدة في منازل شبابها، اتجاهها المنتظم. ما أدركته، أن تلك الدقات أصبحت سريعة اللهاث في الليالي، بطيئة حتى السأم عبر مطاف الأنهر الوئيدة. تتعبها الأنهر مئات المرات فوق الاحتمال، ثم يعقبها الليل. عندها تنهار على فراشها بدلا من الخلود إلى النوم ليعود النهار ولمّا ترتح ولو للحظة مما هي بحاجة إليه. يعود وهي دونما قدرة على النهوض، فلا تملك إلا أن تجرّ نفسها من الفراش.

تتذكر جيدا اعتيادها على تعبئة الساعة بانتظام. تنهض مبكرا وتعد الشاي لزوجها. وفي الظهيرة، ترسل غداءه في موعده، بعد ذلك تجلس لتخيط شيئا لوالدة زوجها أو أخته. أما في الليل، فإنها تنضم إلى مائدة العشاء، بينما يتذمر زوجها ـ المقاول ـ وأصحابه دونما انتهاء من زيادة الأسعار المستمرة وكسل عمّالهم. بيد أن شعوراً بالخدر يسري في قدميها لدى قيامها بكل هذا وسماعها لكل هذا. إن الشعور بالتبلد يدب عاليا، خلال ركبتيها، جسمها، لسانها وأذنيها، ويركّز نفسه في كل عصب خلف جبينها، وهكذا تكف عن أن تتكلم كثيرا أو حتى تسمع كثيرا.

بيهار يذهب للكلاب. بيهار يزوّر. تلك كانت نوعية الأحاديث، والتي لم تكن لتعنيها في شيء. إنها مازالت تتذكر ذلك اليوم الذي آلمها فيه رأسها بشدة وكانت راقدة في الفراش، وحماتها تسألها عن موضع الألم.

أرادت أن تتكلم ولم تستطع، لكن ليس بسبب الألم. إن مجرد الملل والضجر من كل ما حولها هو ما يبقيها صامتة. أما حماتها

فإنها حتما قد افترضته وعكة معوية، وأعطتها بعض أقراص المعدة فتناولتها بصمت.

لم يكن الأمر كما لو أن لديها شيئا ضد زوجها، أو أن لها مشاكل مع أحد من أقاربه، بل كان بالأحرى، أشبه بمسافر بقارب تجرفه رياح عاتية إلى جزيرة غريبة حيث لا يعرف أيا من السكان ولا يعرف لغتهم، وحيث كل ما يمكنه عمله هو مجرد التحديق في كل اتجاه دون أن يطرف له جفن. عرفت أيضا أنه عندما يجنح قارب عذراء بسبب من رياح الزواج المتقلبة إلى أي جزيرة غريبة، فإنها ستنتهي هناك بمفردها إلى الأبد. إنه لمحظور عليها أن تتجه بالقارب بعيداً، أن تجذف تحت إمرة وأفكار أي شخص آخر، ولذا فهي حتى لم تنظر مطلقا تجاه المجاذيف.

وما أن تستلقي نائمة في الليل، حتى تبصر نفسها وقد نهضت بهدوء من فراشها، تتحسس طريقها عبر الجدران والأبواب، وتهيم عبر الطرق الضيقة والسكك السدّ. عندئذ ستكون صفوف البيوت متخلفة وراءها، وستجد أنها تسير على ممرات غير مستوية ومهجورة، فدروب عبر الحقول وغبار سهول قاحلة، وبعد الجهد، تجد أن أهالي المدينة في أعقابها فتأخذ في الركض حافية. ضجيج المطاردة لا يفتأ يعلو أكثر حدة وقربا. وستجهد نفسها إلى أقصى حد إلى أن تنتهي إلى حافة الماء. ستسمع الضحك عاليا من مطارديها وصراخ التوبيخ: «إلى أين ستهربين الآن؟».

لا تملك أنيتا اليائسة إلاّ أن ترفع قدمها فتغرسها في صدر النهر لتجد بدهشة عظيمة أن موطئ قدمها مكين جداً كما لو أنها خطت على سجادة ناعمة وباردة في ملمسها. سترفع قدمها الأخرى أيضا إلى الأمام لتمشي بسكينة فوق الماء. سيتخلف الجمع على ضفة النهر، لن يجرؤ أحد على عبور الماء لمطاردتها، بذلك تفلت منهم

جميعا.. وتمضي قدماً...

تتذكر أنيتا كيف اعتادت أن تستيقظ فتلمس قدميها لتتأكد ما إذا كانتا مبللتين بماء النهر، فلا تجد على قدميها ماء ولا أي شيء من غبار الطريق.

في البداية كان بداخلها جزء من تلك الأحلام يفضي إلى جدل طويل في عقلها. كان الأمر كما لو أن لها عقلين بدلا من عقل واحد في جسدها. وكانت امرأتين وليست واحدة. واحدة كان اسمها أنيتا، بنت دهارم پراكاش أناند، زوجة رامپال ساجديفا الهندوسي، من ساكني الهند، والمذعن لعدة نظم وقوانين. أما اسم الأخرى فكان فقط امرأة، بنت الأرض التي تتعلق بالسماء كعريس لها. عقيدتها الحب، العالم بيتها، مطالبها هي القانون الوحيد الذي يمكن أن يحدّها.

أصبحت وبالتدريج معتادة على هذا الحلم. ينتابها على وتيرة متكررة، مثل كثير من الأشياء... حمّام الصباح الباكر، الطبخ في النهار، والذهاب إلى فراش زوجها حين يطلبها ليلاً.

ثم كان هناك امتداد على الحلم. أصبحت شبه مدركة لوجود تمثال يقف عبر الماء. لم يحدث أبدا أنها اقتربت منه كفاية لتتيقن منه، كل ما أدركته كان ارتفاعه وظهره العريض. كلما دنت منه لتتطلع إلى وجهه، فإنها كانت تصحو.

ثم امتداد ثان. فهي الآن تستطيع أن تسمع التمثال يتكلم، لكنه كلام يشبه من يقرأ لنفسه، سواء أكان رسالة أو أغنية أو صلاة، لم تكن موقنة، حيث لم يسبق لكلمات مثل تلك أن نفذت إلى أذنيها، مجرد صوت، صوت عميق رزين مثل ربيع ينبثق من رحم الجبل.

بعد ذلك حدث شيء ما. كانت في حفلة . هناك أبصرت رجلا من الخلف. استمرت تحدّق في ظهره لمدة ليست بالقصيرة. طلب المدعوون

في الحفلة من الرجل أن يغني، وغنّى قصيدة قصيرة. كان اسمه ساجار.

لقد عضت أنيتا شفتيها لتتأكد من أنها لم تكن تحلم، ولم تكن كذلك. كان نفس الصوت العميق الرزين، مثل ربيع ينبثق من رحم الجبل... أما الوجه الذي أبصرته بعد ذلك، فقد بدأ ينتاب أحلامها. فأعطت اسمه للتمثال في أحلامها.

ومنذ ذلك الحين، كلما جلست أنيتا الأولى إلى جانب زوجها، كانت أنيتا الأخرى مع ساجار. والمسألة الثانية أن أنيتا الجسد تكون موجودة حيث يمكن أن يبصرها أي كان، أما أنيتا غير التابعة للجسد فلا أحد يستطيع رؤيتها.

في البداية، اعتادت أنيتا الأولى على الاصطدام مع الأخرى. فهي تنهمك في شجار طويل، وجدل لا ينتهي، أما أنيتا الأخرى فقد تبكي أو تبتسم، لكنها تبقى صامتة. على أن هذه الأنيتا ذكية الفؤاد، دموعها غزيرة، وكلماتها ناعمة جدا بحيث ينبجس تأثيرها في قلب أنيتا الأولى. بدأت تجلس في صحبة الأخرى كالأصدقاء الأوفياء. وذات مرة سألت بنعومة:

«على أية حال، ما هذا الساجار بالنسبة لك؟»

«لا أعرف»

«إنه لا شيء؟»

«... نعم، لا شيء، ربما»

«لم ربما؟»

«لأنني أشعر بأنه كل شيء»

«هل أقول لك شيئا؟»

«نعم»

«الحقوق تنشأ عن علاقة، والعلاقات تُستمد من الجسد»

«نعم»

«أنت بلا جسد. وعلى هذا الجسد السيطرة لي، لأنني أكبر منك سناً. وطالما أنني على قيد الحياة، لا تستطيعين التسيّد على هذا الجسد»

«أقرّ أني بلا جسد. للجسد قدمان، وللقدمين طريق أمامهما، والطريق يقود إلى غاية»

«هو ذاك ما أقوله، ليس لديك غاية»

«ربما العكس»

«ها أنت تعودين ثانية إلى... ربما! لم تقولين ربما عن كل شيء؟ إنني أخاف (ربما) هذه منك»

«لِمَ تخافينها؟»

«خوفا من تمردك على سلطتي»

«تظنين أنني سأحرمك السلطة على هذا الجسد؟ وأضمن القوة لساجار عليه؟»

«أنت تتمتعين ببعض التهور»

«لكنك... تعرفين جيدا أنني سأظل بكماء حتى تعيريني لسانك.

الألسنة تنطق الكلمات، والكلمات تنم عن المعاني، والكلمات كلها تحت سيطرتك»

«لن أعيرك أية كلمات»

* * * * * *

الحوار الذي بدأته بعاطفة ذلك اليوم انتهى بنوبة غضب. ولم تتحدث مع أنيتا الأخرى لأيام عدة. لكن الآن يوم آخر، فأجلست أنيتا الأخرى على ركبتيها وسألتها:

«لم تمعنين بالتحديق في وجهي ببلاهة طيلة الوقت؟»

«يقولون إن الأمهات والأخوات قادرات على فهم ما يقوله البلهاء. قد لا أملك سواك، لكنك بالتأكيد ملكي»

«ما الذي تهدفين إليه؟»

«أتمنى أن تعملي على أن يأتي ساجار إلى هنا مرة»

«ما الذي تريدين أن تقولي له؟»

«لا شيء، لأنني لا أستطيع أن أقول أي شيء. وأعرف أنك لن تعيريني أية كلمة»

«إذن ما الفائدة من رؤيته؟»

«ما هي الفائدة لأي كان وراء رؤية القمر أو الشمس؟»

«ما من أيدٍ يمكنها أن تمسك بالشمس أو القمر مطلقا»

«دعي أصحاب الأيدي ينشغلون بذلك. أما أنا فليس لي يدان»

ألقت نظرة على يديها وقالت لأنيتا الأخرى: «لا تظني للحظة أنني سأعيرك يدي يوما ما»

«لِمَ تخافين مني إلى هذه الدرجة؟ هل حدث وأن أسأت لك؟»

«حسن. سآتي به هنا مرة. مرة فقط. ولن تتكرر»

«كما تحبين»

* * * * * *

دعت ساجار وأصدقاءه على الشاي ذات مساء. فجاء ساجار، كما جاء آخرون أيضا. طُرح سؤال مشوق على الشاي، وكان السؤال: كم لغة يعرفها كل منهم؟ اكتب اسم مضيفة اليوم على ورقة بكل لغة تعرفها. كذلك اقترح أحد رفاق ساجار.

فكتب أحدهم اسم أنيتا بلغتين، الأردية والإنجليزية، وآخر بثلاث: البنجابية والأردية والإنجليزية. وكتب الثالث بأربع: الهند، والبنجابية والأردية والإنجليزية. كل أولئك كانوا من شمال الهند، وليس منهم من يعرف أكثر من ذلك. لكن صديقاً لساجار كان يعرف الفرنسية أيضا، كان الفائز حتى الآن. عندها وُضعت الأوراق أمام ساجار. وفيما كان يلعب بالقلم بين يديه، قال: أنا لا أعرف أية لغة. ثم أضاف بهدوء: ليس للقلب لغة.

استعادت أنيتا الارتعاشة التي سرت فيها من تلك الكلمات. وبعد أن غادر ساجار ورفاقه جميعا، التفتت لأنيتا الأخرى بغضب: «أنت السبب. لقد سمعت ما قاله ساجار»

«ساجار قال ما قال، وأنا لم أقل أي شيء»

«من يعرف ما الذي ستفعلينه يوما ما»

«أنا؟ أنا لا أستطيع أن أفعل أي شيء مطلقا»

«دعيني أقول لك هذا بوضوح. لن أسأل ساجار الحضور إلى هنا ثانية»

«كما تحبين»

«إذن، وبما أن ساجار قد ذهب، ولن يأتي أبدا مرة أخرى إلى هنا، فليس لديك ما تخشينه مني. في المقابل، ينبغي أن تثقي بنفسك، أن تمنحيني صحبتك لدقائق عدة»

«لماذا؟»

«لا شيء على وجه التحديد. سألعب معك قليلا، ليس إلا»

«لم لا تذكرين لي الحقيقة؟»

«أريد أن ألمس ساجار بهاتين اليدين»

«لكن ساجار قد ذهب»

«لا تنشغلي بذلك. فالأشياء التي لمسها مازالت هنا. أريد أن أمسك تلك الأشياء»

«أعتقد أنك مجنونة»

«إن كان ذلك ما تفكرين، فلِمَ الخوف مني؟ من يخاف من الناس المجانين؟ لا يخشى الناس سوى الأذكياء»

ولأنها ذهلت، أعطت يديها لأنيتا الأخرى. أخذت أنيتا ذلك الكوب الذي شرب منه ساجار، فرشفت من شايه البارد وقالت: «ما الذي تخسرينه حتى وإن كنت مجنونة؟ لكنك لا تعرفين حقا ما الذي شربته الآن؟»

«ماذا؟» سألت بازدراء.

«ذلك الذي يجعل الإنسان خالداً»

«فهل أنت الآن خالدة؟ لن تموتي؟»

«لا يقتصر الأمر على أنني لن أموت، إنما سأظل فتية للأبد.. السنون ستمضي وشبابك سيذبل، العمر سيجعّد وجهك، السواد سيجفّ من ضفائرك، بينما سأبقى كما أنا.. شابة وجميلة.»

شدت يديها بسرعة من أنيتا الأخرى. لكن أنيتا تلك لم تحمل ضغينة إزاء أنيتا هذه، فقد تذوقت شيئا لن تطعمه أنيتا هذه أبداً.

بعد ذلك مرت أيام كثيرة. أيام هادئة. بدت خلالها وقد كفّت عن أية مبالاة بأنيتا الأخرى. أبقت نفسها على انشغال بمهام المنزل. تابعت أعمالها. المشاغل لم تكن تأتي إليها بقدر ما كانت تبحث عنها، وعندما تتسرب القوة من أطرافها فإنها تتسلل إلى كهف السبات كأرنبة مروعة.

أصبح النوم ذاته ينبذها. هي تستدعي النوم إليها لكنه يداعبها عن بعد مؤرق. وتثأر أنيتا فتلجأ لتعاطي الحبوب المنومة. الحبوب المنومة تجعل رأسها ثقيلا. كانت تشعر برقبتها وهي تكاد تلتوي تحت ثقل رأسها مرات عدة، فتبدأ كتفاها بإيلامها جراء تشنج رقبتها، ويبدأ الألم بالانزلاق من كتفيها إلى عمودها الفقري.

* * * * * *

كان يوما مضطربا. نسيمه يهب متقطعا مثل شخص ينتابه الفواق، وأنيتا تستلقي مجهدة على سريرها. كان الوقت آخر المساء، ولم يكن زوجها قد عاد من النادي بعد. كان هناك طرق على الباب، ثم جاء الخادم معلنا: «لقد جاء رجل لمقابلتك.»

«ولم لم تخبره أن صاحب البيت لم يعد من النادي؟»

«إنه يسأل عنك، لا عنه»

«عني؟»

«لقد ذكر لي اسمه لكنني نسيته»

«اذهب واسأل ثانية»

ثم عاد الخادم ليقول: «ساجار». فتعذّر عليها النفس. شعرت كأنها لم تأخذ حبة وإنما حفنة من الحبوب المنومة هذا اليوم، وأنها تتجرد من حواسها.

لعل من الجائز أنها لم تستعد حواسها، إلا أن أنيتا الأخرى كانت أكثر نشاطا من أنيتا هذه. فقد أسرعت إلى المرآة، وعدلت شعرها بسرعة ثم ذهبت إلى غرفة الاستقبال.

«أخذت القلم معي سهواً في ذلك اليوم»، قال ساجار... ومد يده لها بالقلم.

جرت سلسلة من الأفكار في عقلها... «قلم محظوظ، كي يكون ضالعا في مثل هذه الغلطة.. هل تظن، ياساجار، أنه شيء بسيط حين تعمل غلطة؟... هناك فرق كبير بين قلم وامرأة يا ساجار، وهكذا فإن أي إنسان في هذا العالم يمكن أن يخطئ، المرأة وحدها غير مسموح لها بارتكاب الأخطاء... الأشياء الجامدة في بعض الأحيان أفضل من الكائنات الحية».

لكنها لم تبح بأي من هذه الأشياء. كل ما نطقت به: «ربما أراد هذا القلم أن يكتب أغنية، لهذا ذهب معك. دع هذا الشيء المسكين يبقى حيث أراد أن يكون»

ثم قال ساجار وهو ينظر إلى يده الممتدة بالقلم: «كنت في الحقيقة أكتب قصيدة بهذا القلم، لذلك السبب لم أقم بإعادته في الحال.»

«أنا شخصيا لن أكتب أي شيء مدى حياتي، وسأعزي نفسي بالتفكير في أن أغنية واحدة على الأقل في العالم قد كتبت بحبر من قلمي»

لم تدري أبدا كيف تدبرت النطق بذلك، لكنها عندما قالته، فقد عضّت لسانها.

وكان رد ساجار: «إذن اعطيني قارورة حبر أيضا، وسوف أستعمل الحبر كلما كتبت أغنية». وأسقط السيجارة من يده في منفضة على المنضدة، ونظر إلى وجهها بحزن عميق جعل أنيتا تفكر في أنها لم تكن امرأة وإنما سيجارة أشعلتها نظرة واحدة من ساجار.

«كلا. لن تعطيني الحبر؟ هل أذهب إذن؟» سألها ساجار، واستدار إلى الباب. كل كلمات الدنيا تحجّرت على شفتيها. ولو أن أحدا أذاب الكلمات المتجمدة وأعاد تشكيلها، لقرأ التالي على شفتي أنيتا: لاأريد البقاء كامرأة، أريد أن أصبح قارورة حبر.

ذهب ساجار وبقيت لصيقة الموضع ذاته. ومنذ ذلك اليوم، لم تعد هي أنيتا، وإنما سيجارة محترقة.

لقد أشعل ساجار هذه السيجارة بالذات، ولكنه لم يكتسب الحق بتدخينها. ومنذ ذلك اليوم بدأت أنيتا تشعر بأن الدخان الذي يتصاعد منها إلى خارج حياتها لم يكن ممتزجا بأنفاس ساجار، وقد كان انتشاره في الهواء ضربا من العبث.

ومع ذلك فقد دخلت مع أنيتا الأخرى في ما يشبه الهدنة منذ ذلك الوقت. وفي الحقيقة، لقد أصبحتا واحدة، تمسح إحداهما الدمع عن عيني الأخرى، وتهمسان أسرارهما، إحداهما في أذن الأخرى. غير أن أنيتا هذه، لم تعر الأخرى أيا من أطرافها أبدا، حيث يمكنها السير إلى ساجار والإمساك بيده على درب الحياة.

من ناحية أخرى، فإنه عندما تجلس الأنيتتان معا، فإنهما تقتسمان كل شيء فيما بينهما... دونما أسئلة تثار. هذه الحميمية بدأت يوم أطفأ ساجار لفافته في تلك المنفضة في تلك الغرفة. حينها أوصدت جميع أبواب الغرفة، وجلست إلى جانب المنفضة كمن يحرس شيئا لايقدر بثمن.

ثم تذكرت أنيتا... لقد تناولت ثقابا وأعادت إشعال العقب المطفأ. وما أن وضعت تلك السيجارة إلى شفتيها حتى شعرت بالأريج من أنفاس ساجار يأتي إليها عبر دخانها.

ومنذ ذلك اليوم، وبصفة مستمرة، أخذت تغلق على نفسها الغرفة. على الأقل مرة كل يوم. اشترت العديد من علب السجائر وأودعتها خزانتها. وقد كانت كل يوم، وبنوع من الورع، تشعل سيجارة فتتخيل أنفاس ساجار في دخانها. كان ذلك ما تمثله طقوس اليوجا* الشعائرية في حياة الكثير من الناس.

وفي بعض الأحيان، تشعر أنها مدينة لأحد ما بدين، وبتدخينها إنما تسدده على أقساط. وكانت تتذكر جدتها المسنة التي اعتادت أن تفرد لقمة للبقرة من كل وجبة. هكذا تميل أنيتا إلى التفكير في أن لقمة البقرة، بتغير الأزمنة، قد تتطور إلى شيء آخر...

كان لابد أن يذكّرها إشعال السيجارة بمصباح علاء الدين، حيث تنبثق هيئة ساجار من حزمة الدخان الرهيفة كالجنّي وهو ينبثق من المصباح. كانت قد سمعت من القصة أن جنّي المصباح اعتاد أن يقف أمام علاء الدين مكتوف اليدين سائلا: لبيك سيدي، ما هي أوامرك؟

وساجار أيضا ظهر أمامها كالجنّي. مع هذا الفارق فقط. فجنّي علاء الدين يقف مكتوف اليدين أمامه، أما هنا، فأنيتا هي التي تقف مكتوفة اليدين أمام ساجار.

---

* طقس شعائري.

لم ناديتني؟ يبدو أن ساجار يسألها.

ويبدو أنها تقول له: «دقيقتين أمام عيني. ولا شيء غير ذلك، لأن هذا ليس بيتي، وأنا غريبة فيه مثلك تماما. وليس ثمة مكان على هذه الأرض يمكن اعتباره ملكي.»

السيجارة ستحرق نفسها بسرعة، وسيختفي ساجار. لن تشعل سيجارة أخرى، فمن غير اللائق إبقاء ساجار واقفا هناك لمدة طويلة.

وقد خيل إليها أنها راقصة للمعبد، ترقص على أرضية من بلاط من المرمر الأسود والأبيض. كان عليها أن تخطو على واحدة سوداء ثم بيضاء. هكذا كان الفن في رقصها، وكذلك كان النظام الذي بنيت عليه الأرضية.

وبصرف النظر عن كل هذا، ومن يوم لآخر، فإنها لم تشعر مطلقا بأي تقلص في المسافة ما بين عقلها الواعي والباطن. وكراقصة باليه خبيرة، فقد كان أداؤها متوافقا بين حقائق حياتها وخيالاتها. وفيما بعد، فقد حدث لها ذات يوم شعور بأنها تعتلي قمة جبل، مثل حد السكين، وعلى جانبيها هوّتان عميقتان. لو أنها سقطت في هوّة عقلها الواعي، فستخسر موطىء قدمها على الخيال وستتحطم، وإن تهاوت على جانب عقلها الباطن، ستخسر قبضتها على الواقع، وتخسر ذاتها في أعماق الجنون.

وذات يوم اتفق لأنيتا أن تقف وزوجها على رصيف محطة القطار. كان صديق لزوجها يزمع مغادرة المدينة، فاصطحبها معه لوداعه. وعلى الرصيف نفسه، رأت ساجار مع بعض من أصدقائه.

كان في يد ساجار حقيبة ملابس، فتهيأ لأنيتا أن كل قطرة من قواها تتسرب من جسدها إلى داخل تلك الحقيبة. وبانعزالها عن الجمع المحيط، بدأت تحدق في الحقيبة كمن يتوسلها أن تعوضها بعضا من طاقتها لتعينها على الكلام مع ساجار.

«أنيتا» كان ساجار قد وضع الحقيبة على الرصيف وأخذ يتطلع باتجاهها. فكرت بالجلوس أرضا أو على الحقيبة لكي تتحاشى الانهيار.

«إنني مغادر على هذا القطار»

«لماذا؟»

«حصلت على عمل... في كالكتا»

غمرتها حالة من الغياب لبضع دقائق، وعندما أفاقت، وجدت نفسها تجلس فعليا على الحقيبة وجسدها يرتجف بكامله.

«كنت ستذهب بعيدا هكذا، حتى دون أن تخبرني؟» شعرت بأنها تتكلم، لكن صوتها بدا وكأنه يأتي من هاوية سحيقة حيث إنها لم تسمعه هي نفسها.

«لقد ذهبت إلى منزلكم ليلة البارحة». سمعت ساجار يتكلم، ثم أضاف: «كانت الأنوار مطفأة في غرفتك ففكرت أنكم لابد أن تكونوا نائمين. فعدت أدراجي».

كان يوما باردا من أيام يناير، وكان ساجار مصابا بالبرد، فاستعمل منديله مرتين أو ثلاثا، لذا أخذ يفتش جيوبه، ربما، بحثا عن منديل نظيف آخر. أخذت أنيتا المنديل من يد ساجار، وتناولت منديلا نظيفا من جيب معطفها أعطته إياه. بعد ذلك لم تعد ذاكرتها تميّز، متى وصل القطار، متى نهضت عن الحقيبة وأراحت نفسها على المقعد، متى غادر القطار، ومتى خرجت من المحطة وعادت برفقة زوجها.

تلك الليلة، فيما هي ترقد مع زوجها، لم تكن لتعرف أي أرض هي هذه، أي بلد، أي مدينة، أي بيت، وأي رجل كان يرقد على

سريرها وتدب أطرافه حول أطرافها. لقد لبثت في هاوية اللا وعي طوال اليل، وعندما استعادت قواها بعض الشيء في الصباح، وجدت نفسها تتشبث بمنديل في يدها، لقد احتفظت به في قبضتها، ربما طوال الليل.

تلك كانت الليلة، والتي تتذكرها أنيتا جيدا، عندما بدأ الجنين يتكون في رحمها.

الفصـــــل الثالث

في اليوم التالي، وجدت القابلة أنيتا وقد تعرضت لارتفاع طفيف بالحرارة. وبعدما أحضرت لها كوب الشاي لاحقا وجسّت جبهتها، تولاها الخوف. الحرارة قد تفاقمت.

«الحمّى في مثل هذه الأيام الحرجة تجعلني قلقة»، قالت ذلك لزوج أنيتا ونصحته باستدعاء الطبيب.

جاء الطبيب وأعطى لأنيتا بعض الدواء، ولدى مغادرته، أخبرهم: «لا ينبغي أن يتلقى الطفل حليب أمه قبل أن تنخفض حرارتها.»

لم تكن أنيتا خائفة من الحمّى، كلا، ولا من الموت. لكن أوامر الطبيب جعلتها تفكر: «قبل أن أموت، أريد أن أتلمس كل عضو من صغيري، وأستنشق الشذا من جسده، وأتنسم من أنفاسه، أريد من شفتيه الصغيرتين أن ترضعا من ثديي... »

حين التقطت القابلة ملابس الطفل وأخذتها للغسيل في الحمام، كانت حماة أنيتا في المطبخ، لتبقى أنيتا وحيدة في الغرفة.

استدارت أنيتا بهدوء على جنبها، وهيأت نفسها في السرير متكئة على المخدة. كان مهد الطفل إلى جانبها، وبيدين راعشتين، تناولت الطفل من المهد إلى حضنها، وحدقت في وجهه «تماما كوجه ساجار، ذات الجبين، ذات العينين وذات الشفتين.»

سرت في جسدها هزّة عارمة من الغضب. كانت غاضبة على نفسها: أي نوع من الأمهات أنا؟ فحين أريد أن أحضن الطفل إلى صدري قبل أن أموت، فليس لأنه طفلي، وليس لأنني أمه، لكن فقط لأن وجهه يذكرني بوجه ساجار، وعينيه بعيني ساجار، وشفتيه بشفتي ساجار.

بعدها، باليدين الراعشتين نفسيهما، أعادت طفلها إلى مهده،

وارتدّت غائرة في فراشها منهكة، متفكرة، «لست قابلة للشفاء. ليس من شيء في هذا العالم يمكن أن يشفيني. لعل من المجدي لو أن هذه الحمّى التي تعتريني لا تنخفض أبدا، ولو أنني أموت بهذه الحمّى...»

تساقطت الدموع قطرة إثر قطرة على مخدتها، ومن ثم أصاب رأسها الدوار فالخدر.

في وقت متأخر من المساء أخذت الحمّى في التدنّي. أعطت القابلة بعض الدواء لأنيتا، وجلست على السرير لتدليك قدميها. تطلعت أنيتا إلى المهد مرة، ثم أطبقت عينيها ووجّهت اهتمامها إلى الداخل.

* * * * * *

كانت أنيتا تتذكر تلك الأيام حين يهطل المطر وتهب العاصفة، وكيف أنها اعتادت على إغلاق الأبواب والجلوس في تلك الغرفة لبرهة كل يوم. كانت تجلس هكذا ذات يوم عندما طرق بابها. وضعت سيجارتها في المنفضة وفتحت الباب، وإذا بزوجها يقف هناك.

«في هذا الوقت؟ في الظهيرة؟» تساءلت مندهشة.

«هل يمكنني الدخول؟» سأل زوجها كنوع من المجاملة، ودون أن ينتظر الإجابة، دفع يد أنيتا من على الباب ودخل. ومن داخل الغرفة أطلق ضحكة عالية.

«لقد أقلقتني كثيرا، كنت غير قادر على الأكل بشهية ولا على العمل طوال اليوم»

«لماذا؟»

«لقد تهيأ لي أنه عندما أكون بعيدا في عملي، فإن رجلا يأتي ليلتقي بك كل يوم»

انداحت ابتسامة على شفتي أنيتا، بيد أنها كانت كحيوان مذعور، ولم تلبث أن اختفت الابتسامة بسرعة في كهف فمها.

«فمرّة رأيت رماد سيجارة في الممر إلى بابك، وفي يوم آخر، بالقرب من أرجل طاولتك، وبالقرب من قاعدة السرير مرة ثالثة. لقد ظللت مهموما لأيام عدة بعد ذلك. وفي الأمس، رأيت عقب سيجارة في غرفتك ولطخة من أحمر الشفاه على طرفه. تفحصت أطراف أصابعك عندما كنت نائمة ليلا، ورأيت صفار الدخان عليها، كان تخميني صحيحا»

ألقى بنظرة إلى السيجارة المحترقة في المنفضة، ثم قرصها في كتفها قائلا: «لم كان عليك أن تكتمي هذا؟ ألم أطلب منك مرارا أن تأتي معي إلى النادي؟ هناك تستطيعين أن تدخني أمام الجميع. كثير من النساء يدخّن. لست ضد التدخين أبدا.»

بعد أن أبدى زوجها ذلك وغادر عائدا إلى عمله، كان الأمر أن أنيتا أدركت وللمرة الأولى أنها لم تكن مخلصة، ثم أصبح الأمر وكأن شرارة تطايرت لدى جلوسها قرب الموقد فسقطت على ثيابها «غير مخلصة»، سوف تطير تلك الكلمة كشرارة صغيرة، وتستقر على ثيابها.

«لقد اقتحم غرفتي ليتأكد مما إذا كان هناك رجل يجلس فيها». غمغمت أنيتا. «واحد بعينه يجلس دائما في غرفتي، حتى وإن لم يستطع أن يراه أحد. لقد كان هنا، وحتى في هذه اللحظة، إلا أن أحدا لا يستطيع أن يراه.»

وتحدث أنيتا نفسها، «هكذا أكون غير مخلصة. هذا هو عدم الإخلاص»، ويزيد التفكير المتأمل من ارتباكها، وتبدأ برؤية بعد واحد من الصورة الذهنية لكلمة «غير ملخصة»، لكن أين هو البعد الآخر؟ ذلك ما لم تستطع إدراكه. لمن كانت غير مخلصة؟ تساءلت: ألزوجها أم لساجار؟

وتتذكر أنيتا كيف أنها ذات صباح، عندما كانت تترشف كوب

الشاي وتقرأ الصحيفة، قد لاحظت تاريخها، الثامن من مارس، الشيء الذي دفع بها إلى حال من الاستغراق. لقد كان لديها شعور بأن هذا التاريخ مرتبط بشيء ما لا تستطيع تذكر ما هو...

أعدّت لنفسها كوبا آخر من الشاي. ثم، ولسرحانها عن أحداث الصحيفة، أغرقت في التفكير بالتاريخ، وكأنها تعرفت على وجه أحدهم ونسيت اسمه. فجأة، تسارعت أنفاسها، فقد لمعت دلالة التاريخ في ذهنها.. عيد ميلاد ساجار. الثامن من مارس. تاريخ ميلاده.

وهكذا عادت سلسلة من الأحداث كاملة في ذاكرتها. تذكرت الحفلة حيث التقت بساجار أول مرة. عند تناول القهوة بعد العشاء، دار الحديث عن معاني الأرقام ودلالاتها، تشعب الحوار، تكلموا عن التأثيرات المرتبطة بأرقام مختلفة، وبدأت المجموعة تتساءل عن تاريخ ميلاد كل واحد منها. ولما علّق أحدهم بأن الرقمين أربعة وثمانية، هما الأكثر إزعاجا أو صعوبة، أخبرهم ساجار وهو يضحك أن الثامن كان تاريخ ميلاده، الثامن من مارس.

كانت حوالي التاسعة عندما قدمت لهم الشاي ومضت إلى المطبخ لإحضار كعكة. لم تكن تجهز الكعكة، وإنما هي التي تتجهز بين يديها.

وضعت أنيتا الكعكة على طبق وأخذتها إلى غرفتها. سحبت كرسيين إلى الطاولة، وجلست على أحدهما ثم أشعلت سيجارة.

قطعت شريحتين رقيقتين من الكعكة ووضعتهما في طبقين. جلست صامتة لبرهة وجيزة. كم من السجائر دخنته في ذلك اليوم. كانت تقضم الكعكة بهدوء من كلا الطبقين حتى أتت عليها.

طوال ذلك اليوم كانت في حالة من النشوة وهي تحتفل بميلاد ساجار. كان رأسها عاليا في السماء ويداها تمتدان نحو النجوم. أما شفتاها فقد شربتا من مجرّة درب الحليب. وما أن حل الظلام حتى

راحت تترنح وكأنها أصيبت بالدوار إثر إكثارها من الشراب المسكر.

تذكرت أنيتا أنه في تلك الليلة بدأت بكتابة مذكراتها. لقد شعرت أثناءها بما يشبه الاختناق، إذ إن بعض الكلمات كانت تشق طريقها ذاتيا باندفاعها إلى الورق.

أصبحت كتابة المذكرات التزاما ونوعا من الحاجة. كالمرآة التي تبصر نفسها فيها. لقد كانت تريد أن تتطلع إلى نفسها لتتعرف عليها. ودّت لو أنها لا تضعف، مهما كان المنظر، فهي تريد أن تتقبل نفسها مثلما هي عليه في الواقع.

استمرت في كتابة المذكرات لأشهر عدة. قرأت كثيرا أيضا في تلك الأيام من أجل أن تتفهم ذاتها. كانت الكتب تلك بمثابة الترمومتر الذي تقيس بواسطته حرارتها. لذا، فإن سجل حرارتها وسجل صحتها محفوظان في المذكرات.

وهكذا أمضت الشهور في انتظار وصول وليدها. عندما بدأت القابلة بإعداد غرفة مستقلة لولادتها، وتوفير مختلف المتطلبات الضرورية لها وللطفل القادم، بدا لها فجأة: «ماذا لو أن أحدا أخذ مفاتيحي أثناء غيابي، وفتح خزاناتي، إن هذه المذكرات ستقع حتما في يده». هذه المذكرات بالنسبة لأنيتا مثل العذراء التي لا يمكنها التسليم بخفرها لأي كان. ثم بدا لها قلق آخر. «ما الذي سيحدث لهذه المذكرات إن مت أثناء المخاض؟» فكان الحل حرقها بيديها، كي لا تقع في أيادٍ أخرى.

وتذكرت أنيتا لحظة وضع المذكرات في الموقد، وكانت على وشك أن تضرم النار بها، كيف احتجت يداها بألم. «لو أمكن لساجار قراءة هذه المذكرات مرة.. عندئذ لا يهمني حتى الموت. سيجلس أحيانا ويفكر، وحينها سيتذكر، أنه ذات مرة، كان هناك أنيتا...».

أراحت رأسها على ركبتيها، «اليوم لن تبقى هذه المذكرات في هذه الدنيا. وغدا لن أكون شخصيا في هذه الدنيا. ستكون القصة قد انتهت... ثم أين هي القصة؟ إنها مجرد واقعة فشلت بالتطور إلى قصة... مجرد حقيقة مفادها، كان هناك أنيتا ذات مرة... وحقيقة مثل تلك لن تخطر لساجار على بال».

لكنها تداركت المذكرات بسرعة من الموقد، تقريبا كمن يسرع إلى عيادة أحد على فراش الموت.

أعادت المذكرات إلى غرفتها. غلّقت الأبواب، وأخذت في قراءتها كمن يرغب في مناقشة بعض الأمور مع شخص يحتضر. كانت تجلس في غرفتها وحيدة تقرأ وتدخن. التدخين يعطيها الإحساس دائما بأن ساجار يقف إلى جوارها. كان ذلك هو شعورها في ذلك اليوم أيضا. وهكذا فإنها لم تكن تقرأ المذكرات بقدر ما تدفع ساجار لقراءتها. كانت قد كتبت في مذكراتها:

اليوم كنت أقرأ في رواية لألبير كامو* يروي فيها عن مرفأ فرنسي على شاطىء جزائري، حيث لم تعد تسمع خفقات أجنحة الطيور، ولا الأوراق تصدر حفيفها على الأشجار. فقط الزهور التي جلبت من الأماكن القريبة كي تباع، تجعل الإنسان يدرك أن زمن الربيع قد حل على العالم.

ثم إن هناك طاعونا في المدينة. بعض الناس غادر المدينة والبعض الآخر لايزال هناك. عندما تغلق أبواب المدينة بأمر من السلطة، يحرم الناس حتى من متعة صغيرة ككتابة الرسائل. يحتاج الناس لبعض الوقت قبل أن يدركوا كم فظيعة هي العزلة، بعد ذلك يأتي الإدراك ويسلم الناس أنفسهم لذلك الرعب. خطواتهم تصبح بلا غاية، يدورون ويدورون في الشوارع نفسها، ويثيرون الشفقة أينما حلّوا.

بين الفينة والأخرى، يمارسون اللعب مع مشاعرهم. يجلسون

---

* المقصود هنا رواية الطاعون للروائي الفرنسي ألبيركامو.

وآذانهم يقظة للتنصت على بعض الأصوات من بيت الدرج، منتظرين الخطوات على عتباته، متوقعين... ولكن يأتي الوقت عندما يضطرون إلى القناعة، بأنه، وبحكم الظروف، فلا عربة ولا قارب يمكن أن يأتيا الآن إلى مدينتهم من أي جزء من العالم. وإن بدأ شاب فقير التفكير في المستقبل، فإنه سريعا ما سيستسلم لأنه يدرك أن الألم الذي يصيبه جراء مشاعره الجريحة لا يمكن احتماله.

لم أشاهد هذا الميناء الذي يتكلم عنه ألبير كاموا أبدا، لكنني أستطيع أن أجزم بأنني كنت أعيش فيه منذ ولادتي. فلا خفقات لأجنحة الطيور ترجّعت في أذني، ولا حفيف الأوراق على الأشجر. لا ولا كنت ملمّة عن قرب، أي الفصول هذا الذي من حولي.

إن أبواب مدينتي هذه موصدة بأمر من المجتمع، ومدينتي موبوءة بطاعون قوانين المجتمع المعدي.

* * * * * *

تتذكر أنيتا أنها لم تقرأ سوى صفحات من مذكراتها عندما غشّى الألم بدنها. تلك كانت الوخزات الأولى لمخاضها. أطفأت على عجل السيجارة التي في يدها وقذفت المذكرات في الموقد المشتعل دون قراءة لبقية الصفحات. لقد مزّقت جلد المذكرات لكي لا يطول وقت احتراقها، ثم أخذت تحرث الصفحات المحترقة بمحراث من الحديد وتهوّي اللهب كي لا يبقى أي شيء في الموقد نصف محترق. ثم كسحت الرماد بماء من الحمام حتى لا يبقى له أثر يثير سؤالا في عقل أي كان. بعد ذلك تضاعف الألم. دعت إليها القابلة وسلّمتها جسدها لتعتني به.

بينما أمسكت بقوة طرفي السرير من الألم، طفحت عيناها، «ربما تمخّض عن جسدي المعذب طفل جميل، بيد أن كل ما سيتمخض من جسد تلك المذكرات المحترقة سيكون ذكرى. وتلك أيضا، ستكون ذكرى مريرة جدا... كم هي مؤلمة الولادة. ولادة أي شيء».

الفصــــل الرابع

كان سرير أنيتا ومهد الطفل في الغرفة نفسها، لكن الحمّى لدى أنيتا أصبحت جداراً حال بين السرير والمهد.

أرضعت القابلة الصغير بحليب من قارورة، لكن الطفل سريعا ما تقيأه وبدأ بصياح ينم عن جوعه مجددا. الحليب الحبيس في صدر أنيتا يغلي مع الحمّى. أصبح الطفل يكره الحليب الغريب، فهو يرضعه في لحظة ويجدفه في الأخرى. ربما كانت قوة كراهيته تلك هي التي عملت على انخفاض الحمى لدى أمه.

بكل من أطرافه النحيلة، يديه وقدميه، ومع أنها كانت ضئيلة، فقد حطم بها جدار الحمّى الذي كان يعزل مهده عن سرير والدته.

وبمجرد أن حملته أنيتا إلى حضنها، أخذ يتحسس هنا وهناك من على صدرها بحثا عن الحليب. تدفق الحليب من تلقاء نفسه من صدرها والدموع من عينيها. نبضت غريزة الأمومة عبر كل عصب من كيانها.

تلك الأربعون يوما كانت فترة عجيبة في حياة أنيتا. وجه ساجار في مخيلتها وحقيقة وجه الطفل تتسلل إلى وعيها. الوالهة أنيتا والوالدة أنيتا تندمجان في كيانها أيضا. كان هناك نوع من الرضا والقناعة يتسرب داخلها، بينما كان الصدع من الانشقاق يملؤها.

هكذا، وبعد أربعين يوما، شعرت أنيتا أن بإمكانها الآن تقبل الحياة كما جاءتها، بابتسامة. أخذت تحدث نفسها بأنها ستكون قادرة الآن على إنصاف زوجها. لقد كان على أية حال رجلا نبيلا، لم يصرخ فيها، أو يتفوه عليها بكلمات نابية. والآن فهو والد طفلها أيضا.

عندما حمّمت أنيتا الطفل وزينته ورأته في حضن زوجها، شعرت بتغيير يحطّ على قلبها. شق أول ضرس لدى الطفل، وتعلم كيف يجلس وكيف يحبو، وبدأ يتحدث إلى أنيتا بما لديه من «أمّاته... وممّاته».

بدأت أيام أنيتا تمتلئ وبالها ينشغل. كانت تغلق جميع الأبواب المؤدية إلى عقلها عندما تذهب للنوم، إلا أن ساجار ظل قادرا على التسلل إلى أحلامها بطريقة ما. لذا، فإنها عندما تنهض في الصباح وترش عينيها بالماء، فإنما لتغسل من حولهما المستحضرات، وبالقدر نفسه، كل الأفكار المتصلة بساجار.

ومر عام، فعامان، ثم ثلاثة، ومر العام الرابع أيضا. الطفل يذهب الآن إلى المدرسة. لم يحدث شيء ذو بال في هذه السنين عدا كون أنيتا لم تسلك إزاء طفلها الطريقة التي يمكن أن توصف بسلوك الأم الطبيعي. قد تكون أنيتا جالسة بهدوء، ثم تنهض فجأة وتبدأ بلثم الطفل النائم من قمة رأسه حتى أخمص قدميه. كثيرة هي الأوقات التي لا تحرك فيها الطفل لتتحاشى إيقاظه، فتجثم بركبتيها على الأرض، واضعة رأسها على مهده، وتستسلم للبكاء. وكثيرة هي الليالي عندما لا تتمكن من النوم فتعمد إلى أخذ الطفل من سريره إلى سريرها. عندها تقوم بتمشيط شعره مرة تلو الأخرى، وبصرف النظر عما إذا كان مستيقظا أم نائما، فإنها تصنع له عقصة من الشعر على جبينه، كتلك العقصة التي تتوس على جبين ساجار.

تفاقم هياج أنيتا مع بداية ذهاب الطفل إلى المدرسة. قد تكون مغادرته إلى المدرسة تعادل الساعة بالكاد، لكنها ستجد العذر للّحاق به، وهناك ستقف رانية بلا نهاية إلى وجهه. ونظرا لتحسسها من هياجها، طلبت من زوجها ذات يوم أن يجد لها عملا.

أدى العمل إلى نوع من الإنعاش اللطيف للمياه الراكدة في حياة أنيتا. إنها لا تقضي الآن معظم يومها مستلقية لتريح أطرافها المتعبة على فراشها. كانت تصحو في الوقت المحدد، وتستعد، وتلحق بالحافلة إلى عملها، على الرغم من أنها تمر بكل هذا، وإلى حد كبير، وكأنها تدفع نفسها بصعوبة.

في كثير من الأوقات كانت أنيتا تتفاجأ بعينيها وهما تتفحصان عن قرب الطريق من أمامها بينما هي تجوب الشوارع. تتابع عيناها امتداد الطريق إلى أقصاه ثم ترتميان كسيفتين على قدميها. أحيانا وبينما هي تستقل الحافلة فإنها تحدق بتركيز في وجه راكب ثم تشيح برأسها بعيدا عنه. كثيرا ما انتهى بها الأمر إلى الدموع نتيجة تورطها هذا. وكثيرا ما غمغمت إلى نفسها بشكل مفاجىء، «تعالي إليّ، أنيتا. ما الذي تبحثين عنه في الخارج؟ سيصيبك الجنون وأنت تبحثين هكذا. هو حتى لم يعد ليسأل عنك... وقد استنفدت كتابة حياتك من أجله.»

الفصــــل الخامس

على تلك الطرق التي اعتادت أنيتا أن تتطلع إليها مترقبة، ولطالما حدّثت نفسها بالكف عن المراقبة، على تلك الشوارع ذات يوم، التقت بساجار مصادفة.

لقد حدّثت أنيتا نفسها مكررة: إنه ليصعب أن يكون حقيقة، إذ لم يكن من طبيعة هذا العالم، ومع ذلك فقد كان. لقد اقتنعت أخيرا بهذا حيث ذهبت مع ساجار إلى مكتبها وقدّمت طلبا بإجازة. إنها الآن على أرض صلبة، والرجل الذي يماشيها على جانبها الأيمن هو ساجار.

لم تكن ثمة غاية لبلوغها، ليصبح المشي غاية بذاته. إن قصارى ماترغب فيه أنيتا الآن، ألا يكون هناك حد للمسافة التي يقطعانها، ولا انفصال بين الأقدام الآن وهي تخطو على أرض مشتركة.

«كل شيء يبدو لي كالحلم». قال ساجار ذلك فيما هو يتابع المشي، «ما كنت لأصدق أبدا أنني قد أمشي هذه الشوارع بصحبتك.»

لم تتكلم أنيتا. فقط سألت أذنيها ما إذا كانت تلك الكلمات التي استمعتا إليها، هي في الحقيقة كلمات ساجار.

«متى أتيت؟» سألت بعد برهة.

«أمس»

«ما كنت لأعرف لو لم نلتق اليوم في الشارع»

«أتعرفين من أين جئت الآن؟»

«من أين؟»

«مررت ببيتكم»

«صحيح؟»

«سلي خادمك حين تعودين»

فما كان لأنيتا أن تطرف، ومضت محدقة في السيجارة التي في يد ساجار. خطر لها أن تخبره كيف أشعلت عقب السيجارة الذي تركه وكيف أصبحت مدخّنة. لكنها خجلت من الفكرة.

«لابد أنك متعبة؟» سأل ساجار.

«أنا؟» وضحكت أنيتا، كما لو أن كلمة «متعبة» من الصعب أن تقال اليوم عن قدميها.

«هل نجلس في مكان ما، نتناول الشاي؟»

«إذا أردت...»

«لست مقيما عند أي أحد هنا، وإنما في فندق، هل نذهب إلى هناك؟»

«حسن. لنذهب»

أشار ساجار إلى تاكسي عابر.

«لابد أنك تزوجت»، قالت أنيتا فجأة، لحظة دخولهم الفندق.

«كلا»

«لماذا؟»

سحب ساجار كرسيا لأنيتا وبدأ يذرع أرض الغرفة. توقف خلف كرسي أنيتا قائلا: «الإنسانة التي رغبت في الزواج منها... حسنا، قد تزوجت من شخص آخر. فبمن يمكن أن أتزوج؟»

شعرت أنيتا بالأرض تهتز من تحتها فتشبثت بذراعي الكرسي وكأنها تحاول أن تقي نفسها من السقوط. ثم بدا لها أن ذراعي ساجار قد عضدتاها كي لا تسقط.

استجمعت أنيتا قواها وتطلعت إلى أعلى. من خلفها، وراء الكرسي، انحنى رأس ساجار إلى الأمام، تلفح أنفاسه رقبتها.

حاولت أن تقول شيئا، ولكن لم تصدر عنها أية كلمة. كانت شفتا ساجار تحومان فوق شفتيها. لم تكن تلمح سوى ومضات برق بعيدة تشع خلف طبقات من الغمام. أما الآن، فيبدو لها أن شعاع البرق يسفر من خلال أطرافها.

«ما هذا الذي فعلته بي؟ ندّ عنها السؤال بعد لحظة بشفتين مازالتا مرتجفتين، وصوت تعتريه الرعشة.

تناول ساجار يد أنيتا وقادها من الكرسي إلى السرير. كانت أنيتا في الحقيقة تشعر بصعوبة البقاء جالسة على الكرسي.

«هل أطفىء النور؟» تساءل ساجار. كان الوقت نهارا، لكن مع النوافذ المغلقة والستائر الثقيلة التي عليها، فقد كانت الغرفة مظلمة نوعا ما. كان ساجار قد استخدم الإضاءة الكهربائية.

«لماذا؟» سألت أنيتا.

«سوف أتحدث إليك اليوم. لا يمكنني الكلام في مثل هذه الإضاءة»، أجابها ساجار. أطفأ الإنارة وجلس على زاوية من حافة السرير.

«لم يسبق أن كلّمتني»، همست أنيتا «منذ سنين عديدة جدا وأنا أتحدث مع نفسي»

«أنا. كنت كثيرا ما أتحدث معك. كل ليلة، أتخيلك وأنت متكئة على يميني، كما أنت الآن». قال ذلك وسحب قليلا اللحاف الذي كان قد وضعه على ركبتي أنيتا.

«ولكن، ساجار، أنت لم تقل لي كلمة أبدا. لم تحدّثني بشيء طوال تلك السنين»

«كنت أفكر، طالما أنك متزوجة، فلا ينبغي أن أسيء إلى زواجك»

«لكن، ساجار...»

«نعم؟»

«عندما يتغلغل أحد ما في تفكيرك، ولما يدخل في حياتك، أتحسب أنه يتبقى من زواجك الكثير؟»

«كلا»

«عندما تغمض امرأة عينيها لتبصر صورة رجل بعينه، وتفتحهما لترى وجه رجل آخر، ألا تكون تعيش بذلك كذبة كبيرة؟»

بقي ساجار على صمته لفترة. واستمرت أنيتا تتطلع إلى وجهه. لكنها في الظلام لم تستطع أن ترى شيئا من تغير الألوان عليه.

«حسن، الحقيقة أنني...». تكلم ساجار بتردد، وبطريقة ما... بما ينم عن إحساسه بشخصه، «لست وسيما، وأنت جميلة جدا... لهذا السبب، وحتى هذا اليوم، لم أستطع أن أكلمك إلاّ في الظلام.»

ألقت أنيتا برأسها إلى زند ساجار، واستحال جمالها إلى قطرات من الدموع.

«هل الجمال بهذا الجرم حتى يستحق عقوبة قاسية جدا؟»

«في المرة أو المرّتين اللتين التقيتك بهما، لا أذهب للبيت كل مرّة، إلاّ وقد ارتفعت حرارتي.»

«لماذا؟»

«كان لديّ الكثير مما أود أن أقوله لك، لكنني أنتهي إلى عدم التفوّه بكلمة منه»

«أكان ذلك سبب مغادرتك للمدينة؟»

«أما اليوم فقد نفد صبري». كان ساجار يتكئ على المخدة وهو يتكلم، ويحل بالأخرى زرار قميصها.

«كلا، ساجار، كلا» تفوّهت بذلك وهي تمنع يد ساجار بيدها.

«لماذا؟» اختنق صوت ساجار في حنجرته.

ولم تحر أنيتا جوابا. تجمّد عقلها. تحجّر.

نهض ساجار من حافة السرير بهدوء، وأشرع واحدة من النوافذ ووقف حيالها. ربما كانت أنفاسه المتقدة ما أشعره بالحاجة إلى هواء حاد البرودة.

بالقرب من النافذة المفتوحة توقّف لبضع دقائق، متنفسا بعمق. بعد ذلك قال: «تعالي أنيتا، سآخذك إلى البيت»

صوته كان آمراً، فأطاعت أنيتا. نهضت وانتعلت مداسها. فتح ساجار الباب بصمت وخرج معها.

حالما أجلست أنيتا نفسها في التاكسي، شعرت أنها تنزلق إلى الركن البعيد من المقعد وكأنها تغرق دونما شيء تتشبث به... كانت تغرق في هوّة كأن أحدا ما يدفعها من قمة جبل. ولماذا أحد ما؟ بل يداها تقومان بذلك.

تطلعت أنيتا إلى وجه ساجار بأسى، كان شاحبا، وكانت عيناها زائغتين.

«ساجـ...» تلعثم صوتها حتى قبل أن تنطق باسمه.

لم يجب ساجار، ولا التفت إليها. لفّه الصمت المطلق. عندما سمعت أنيتا باب السيارة يفتح، وجدت نفسها أمام عتبة منزلها.

نزلت أنيتا، وفيما هي تتجه إلى الباب، لاحظت أن ساجار لم

يتبعها. كان قد عاد إلى التاكسي، والسائق يتراجع بسيارته مبتعداً.

رفعت أنيتا كفّها مشيرة لساجار بالتوقف، لكن، إمّا أنه لم يفهم، أو فهم ولم يرد التريث. لوّح من نافذة التاكسي وألقى بنظرة واحدة، ثم نظر أمامه إلى الطريق. وقفت أنيتا متصلبة في موضعها، ولم تلبث السيارة أن اختفت عن الأنظار تاركة إياها تحملق في الطريق الخالي.

تطلعت أنيتا إلى العتبة، ومدت يدا واحدة إلى الباب، كمن يريد أن يهزه ويسأل: «ما هذا؟ ما الذي حدث في تلك اللحظات الخاطفة؟»

عندما أصبحت في غرفتها وانهارت على السرير، عند ذلك فقط استعادت حواسّها ببطء. «ما الذي فعلته؟ لقد انتظرت تلك اليدين طوال حياتي، وها أنا الآن أبعدهما خاويتين... أي نفع لي بهذا الجسد الآن؟ ما الذي أحرزته من إبقائي عليه غير مدنس؟ أهذا ما يدعى بالنقاء؟» أخذت عينا أنيتا تحملقان بجنون وبلاهة في يديها وذراعيها اللتين تتعفنان كالجثة.

تطلّعت أنيتا إلى السقف بذهول، وتبينت خطّافا في السقف. تخيّلت نفسها تربط حبلا فيه وتصنع منه أنشوطة في الطرف الآخر حيث تضع رقبتها فيها. «دعني أضع نهاية لهذا الجسد. تلك أفضل طريقة. لم أستطع أن أتخلّى عنه للرجل الذي خلق له. فماذا أصنع به الآن؟»

حاولت أنيتا أن تنهض فلم تستطع. كل طاقتها كانت تتسرب منها كدم يتنزى من جرح. كما لم تستطع أن تحرك أي عضو فيها مهما حاولت.

لعلها أُخذت بالنعاس دونما شعور، ولما استيقظت كانت مستفزّة، «اغفر لي، ساجار، اغفر لي مرّة... تعال وخذني ولو مرة.»

كان هناك من يدق على الباب. وبدا لأنيتا أن ساجار قد عاد. ركضت إلى الباب، ولم تجد غير ابنها رشمي يقف هناك، عائدا من المدرسة.

وقفت تتطلع في وجهه، تماما كما لو أنها فشلت في التعرف عليه.

«مامي...» قالها الطفل مرة وثانية.

بعد ذلك احتضنت أنيتا الطفل إليها وفكرت في سرها، «سوف آخذ هذا الطفل معي الآن وأذهب إليه.. انظر، سأقول له، انظر، إلى وجهك أنت! وملامحك أنت! كيف تستطيع أن تكون غاضبا مني؟»

قبّلت الطفل على كتفه، وقبّلته على ركبتيه العاريتين، ثم أخذته إلى الحمام لتغيّر ملابسه.

غيّرت أنيتا ملابس طفلها كما غيّرت ملابسها أيضا. لكن قدميها التصقتا بالأرض، ساكنتين، رافضتين، «كيف سأقول له ذلك؟ كيف سيصدقني؟ كيف سيقرّ بأن وجه طفلي يشبه وجهه؟ فإلى هذا اليوم، أنا لم ألمس أبدا حتى يده. وهل حقيقة أنني لمستهما حتى في هذا اليوم؟ ما الذي فعلته؟»

«هيا مامي...» تمسّك الطفل بيدها وسحبها تجاه الباب الخارجي. تحركت أنيتا إلى الباب، ثم نادت على الخادم، «خذ رشمي هناك إلى الحديقة.»

طلبت سيارة أجرة وانطلقت للبحث عن ساجار. خطر لها الآن أنها لا تتذكر اسم الفندق. لفترة ليست قصيرة كان سائق التاكسي يتطلع إليها بعينين مستفهمتين. لكن ذاكرتها تأبى الحركة. أخيرا، أعطت الرجل روبية وقالت إنها ليست في حاجة إلى تاكسي.

مشت أنيتا في الشارع ببطء، ثم دلفت إلى إحدى الصيدليات وبدأت تتصفح دليل التليفون. خلال قائمة الفنادق قرأت الاسم، كلاريج. أدارت الرقم بيدين مرتجفتين. «من، ساجار؟ السيد ساجار؟ لقد ترك منذ مدة مع أمتعته». أخبرها موظف الاستقبال. ينسدل الظلام أمام عينيها فيما هي تضع السماعة.

الفصـــــل السادس

لم تتذكر أنيتا كيف أمضت الأيام القليلة التالية. لقد استمرت تحدّث نفسها في هذيان بسبب حمّى مرتفعة ـ فقط مع هذا الفارق ـ فالمريض الذي يهذي يتكلم بصوت عال، لكن أنيتا تتكلم بخفوت إلى نفسها، من دون صوت.

«تلقّى رفضي بانزعاج بالغ... كان ينبغي أن يدرك أن المرأة ترفض بالغريزة... كان بإمكانه أن يرغمني كي استسلم... ذلك من حقه... كنت ملكه على أية حال... أي شحوب بدا على وجهه... كل ذلك خطئي. لقد جرحت كبرياءه. لم يضغط علي... لن يغفر لي... سوف يعاقبني طوال حياتي...»

«لو أنني أستطيع أن أكتب له رسالة». فكرت أنيتا في ذلك عندما عجزت عن أن تكبح نفسها. لكنها لا تعرف عنوانه.

بعد شهور عدّة حصلت أنيتا على عنوانه من أحد أصدقائه. كتبت له رسالة بسيطة قائلة فقط إنه إذا كان العنوان صحيحا فستكتب رسالة أطول. لكنها لم تتلق أي رد. لم تعرف أنيتا أبدا ما إذا كان ساجار لم يجب عن عمد أو أن الرسالة لم تصله.

بالتدريج بدأت أنيتا بالتعرّض لفترات حمّى متعاقبة، وبدأت تشعر بأن حياتها كقارب أضاع وجهته في محيط بلا قرار. ليست هناك بارقة أمل في الوصول إلى أي شاطىء. لكنها استطاعت أن تستجمع قوة غريبة لتقبل هزيمتها على الأقل. «أستطيع أن أقول الحقيقة، يجب أن أخبر زوجي بالحقيقة... وعلي أن أطلع نفسي على الحقيقة... إن لم يقدّر لي أن أصل إلى أي شاطيء، فعليّ أن أسلّم نفسي للبحر... لا ينبغي أن أبقى في بيت هذا الرجل الطيب... إن كان عقلي لا يعتبر هذا البيت جنة، فليس لبدني الحق في البحث عن ملجأ فيه.»

وذات ليلة واتت شفتاها الشجاعة. «لا أريد أن أعيش هنا...»

«ففي أي مكان؟» تساءل زوجها، دون أن يتطلع من فوق الأوراق التي يعمل عليها.

«أقصد، ليس في هذا البيت»

التفت رامپال إلى وجهها بنظرة فاحصة، كأنه يقول إنه بيت جيد، فسيح ويغمره الهواء، فما هو عيبه؟

«أود أن أعيش منفردة»

رمقها رامپال بشيء من الدهشة ثم لمس جبينها ليتحقق إن كانت درجة حرارتها عادية، أم أنها ارتفعت فجأة إلى ١٠٦ درجات فهرنهايت.

قالت أنيتا، «إن حياتي على ما هي عليه، ولا أريد أن أفسد حياتك.»

ظل رامپال على اعتقاده بأنها أصبحت مكتئبة بسبب نوبات الحمّى، وكان حذرا من أن تكون معدية.

«لقد احترمتك على الدوام. ومازلت. بيد أن الاحترام لا يكفي، كما أعتقد». أضافت أنيتا.

أطال رامپال النظر إليها مروعا. كان كمن حصل على روبية بعد عمل يوم شاق، وعندما أراد أن ينفقها تكشّفت عن عملة رديئة.

«ما الذي يزعجك، أنيتا؟»

«لا شيء من جانبك»

«إذن؟»

رامپال كان واحدا من أولئك الناس القنوعين في دنياهم، يرتدون خشنا أو ناعما، كيفما يجدونه. يكسبون ما هم في حاجته، وينفقون ما هو ضروري، والذين يعتبرون إضافة صفر، حتى المتخيل، إلى حسبتهم المعتادة، والتي لا تحتاج إلى تجاوز الثلاثة أرقام أو الأربعة، ضربا من تبديد الطاقة.

أنيتا كانت واحدة من أولئك الناس الذين يقيسون أي ملبس قد يصادفونه في حياتهم، متوقعين أن يناسب مقاسهم وذوقهم، يرتّبونه من هنا ويقصونه من هناك على الدوام، وحياتهم محض «أنا» متضخمة، عديدة الخانات، والتي يضمّون إليها أصفارا لا تحصى في أحلامهم.

لم تشعر أنيتا قط بأن رامپال كان مخطئا، وهي المحقة. هي فقط تعرف أنهما قد خلقا مختلفين. كما تعرف أنيتا أيضا أن حياة الناس من أمثال رامپال كانت بسيطة وقنوعة، وأن التي لأمثالها من الناس كانت صعبة ومعذبة.

«أنيتا!»

«نعم؟»

«لم أفكر أبدا أن لك مشكلة في هذا البيت»

«ولست كذلك»

«إذن ما كل هذا؟»

«إنه مجرد شعوري بأن حياتي عدم هنا»

«وأين تريدين الذهاب؟»

«لست أدري». ابتسمت أنيتا بوهن على كلماتها وأضافت، «هنا أشعر بأنني سأموت دون أن أجرّب الحياة. لست خائفة من الموت، أريد فقط أن أعيش أياما قليلة قبل أن أموت، بصرف النظر عن مدى قلتها.»

تأمل رامپال للحظة. ثم قال، «ألم تبدئي التفكير هكذا فقط بعد أن التحقت بالعمل؟»

«كلا، لقد أخذت العمل، بالأحرى، كي أشغل نفسي وأتغلب على هذا الشعور... وللسبب نفسه قمت بالكثير من أعمال المنزل منذ البداية.... كما تحملت أعباء العناية بالطفل... لكن كل ذلك...» تثاءبت بإرهاق، «كل ذلك لم يساعدني.»

«هم م م...» حاول رامپال أن يقول شيئا لكنه شعر بانعقاد لسانه. بقي صامتا للحظة، بعدها، وقد تراءى له تغلبه على عقدة لسانه، قال: «ما أعنيه....» لكنه توقف صامتا مرة أخرى.

«ما إذا كان هناك رجل آخر في حياتي؟» تطوعت أنيتا باستكمال جملته. لم يقل رامپال أي شيء، كان ينتظر الجواب فقط.

«نعم، هناك رجل وليس هناك رجل»

طوال حياته، لم تمر مناسبة على رامپال تخيفه من أي سؤال أو جواب، ذلك أنه اعتاد على الأسئلة الصريحة والإجابات البسيطة. لكن الحياة تبدو له الآن لا كمسألة جمع بسيطة أو طرح، ولا حتى ضرب أو قسمة، إنها لغز، وأحجية، حتى أنه هذه اللحظة يخشى أن يحلّها.

«أقول هذا لأن ذلك الرجل لا يمثّل في حياتي قدر ما يتمثل في تفكيري» وبدلا من محاولة احتساب مقدار ما يمثله ذلك الرجل في حياة أنيتا أو في أفكارها، فقد فضل رامپال أن يعرف من يكون.

«ساجار....» حتى عندما كانت تتفكر، أتكشف عن اسمه لزوجها أم لا، أفلتت الكلمة من شفتيها، تفوهت بالاسم كمن يغمغم في منامه.

لم يتكلم رامپال لمدة طويلة، كما لو أن دماغه مشغول بحسبة طويلة. ثم تطلع إلى وجه أنيتا بدهشة وقال، «كنت أعتقد أنه ذهب إلى كالكتا منذ سنين مضت.»

«سبع، ربما ثمان.»

«هل عاد خلالها إلى هنا؟»

«مرة»

«كم يوم؟»

«لقيته لمدة ساعة. ولا أعرف كم يوم قضاه في المدينة»

«هل يكتب لك؟»

«أبدا»

وجد رامپال كل هذا محيّرا. ولكي يتغلب على دهشته، سأل السؤال الذي عزم على ألا يسأله.

«هل حدث أنك وساجار قد....»

«بالطريقة التي تقصدها، أبدا» أجابت أنيتا. لكن الأسئلة والأجوبة تراءت لتفكيرها، كأن أحدا يضع تقريرا عن سرقة ساعة أو دراجة في مخفر الشرطة.

كان رامپال مذهولا دون ريب، مذهولا إلى أقصى حد، لكنه لم يكن غاضبا. وخلال لحظات شعر بذهوله وقد استحال إلى خيبة.

وليتغلب على هذا القنوط، فكر. ربما كان أفضل لو يستطيع أن يحشد بعض الغضب. تطلع بأنيتا ثانية محاولا أن يجد ما يثير غضبه. لكن وجهها كان غاية في الكآبة والحزن لدرجة أن رامپال شعر بنفسه يغرق عميقا في مستنقع اليأس.

تنهّد بعد لحظات بعمق وقال، ليس لأنيتا بأكثر مما لنفسه، «كثيرا ما وجّهني والدي منذ البداية بأن عليّ أن أكون حازما معك.»

«كان حسنا جدا لو فعلت». أجابت أنيتا بحيوية.

«حسنا جدا؟» تساءل رامپال ببعض الدهشة.

«نعم، كان سيجعل الأشياء سهلة جدا بالنسبة لي، لأن المرأة تستطيع أن تكره من كان حازما. فإن كنت تستطيع أن تكره رجلا، إن شدّدت البغض لرجل، فلا تحتاج إلى وقت لتنفصل عنه. لكن الصعوبة إن لم تكن هناك فظاظة. المرأة تكره جرح مشاعر رجل إن لم يكن غليظ الطبع، فضلا عن الصعوبة الشديدة في أن تكذب عليه». واختتمت أنيتا بانسياب الدموع من عينيها.

الفصـــــل السابع

صمت بارد يصاحب أنيتا كلما جلست. صمت بارد يبقي صحبتها ساكنة حيثما ذهبت. وهكذا مضت أيام عدّة حملت معها ظل الصمت إلى أي مكان توجهت إليه. لقد قال زوجها إنه يحاول أن يفكر في إجابة.

ذات يوم، اندفع دم دافئ، فجأة، عبر أوردة الصمت الباردة هذه. كانت أنيتا في طريقها إلى المكتب. وفي الحافلة صادفت رامبالي، صديق ساجار، الذي كان قد أعطاها عنوان ساجار ذات مرة وبعثت عليه رسالة. كان يحتل المقعد الأمامي عندما لاحظته أنيتا لدى ركوبها الحافلة. كان بإمكان أنيتا الحصول على مقعد فارغ في الخلف، لكنها تركته لامرأة أخرى كي تظل واقفة وتتقدم خلال الممشى المزدحم إلى الأمام، فلربما تحدّث عن ساجار...

نهض صديق ساجار من مقعده حالما لاحظ أنيتا واقفة إلى جانبه الأيمن، وطلب منها أخذ المقعد. لم تشأ أنيتا الجلوس. أرادت الاستمرار واقفة وسماع شيء عن ساجار، لكنها لم تستطع أن تمعن في الرفض فجلست.

وقف صديق ساجار صامتا لبعض الوقت ويداه على ظهر المقعد، ثم انحنى قليلا إلى الأمام تجاه أنيتا وسألها: «كيف حال ساجار الآن؟»

لقد أخذت أنيتا على غرّة، وكما لو أرادت القول، «ذلك بالضبط ما أردت أن أسألك.. فتسألني أنت.»

«لابد أنه تحسَّن الآن» عندما قال صديق ساجار تلك الكلمات، أدركت أنيتا أنه لم يقصد مجرد السؤال عن أخبار ساجار، وإنما يسأل عن مرض تعرّض له فعلا. سألت أنيتا بقلق، «أهو مريض؟»

«ألا تعرفين، أنيتا؟»

«كلا»

«ألم يكتب لك؟»

«كلا»

«كان لديه انهيار عصبي»

«متى كان ذلك؟»

«منذ مدة ليست بالقليلة. ربما مرّت عليها سنة الآن. عندما جاء مرّة إلى دلهي ليوم أو يومين. ربما التقاك أيضا. كان بعد ذلك بشهر. كان ذلك أيضا بعدما وصلتني رسالة. وفي إثرها كتبت مرات عدة، لكن الولد لم يجب.»

«لكن لابد أنه الآن بخير...» لم يكن ذلك سؤالا، بقدر ما كان محاولة لطمأنة نفسها.

«ما كنت لأعرف الآن. لكن أحدا ما قد جاء من كالكتا منذ شهرين أو ثلاثة وذكر لي أن صحة ساجار كانت في حالة سيئة». تطلع الرجل فجأة من نافذة الحافلة وقال: «هذا مكتبك أنيتا»

نزلت أنيتا من الحافلة، وبمجرد أن أبصرت الساعة خارج مبنى المكتب، شعرت بنفسها كساعة ثبّتت إلى أعلى حائط المجتمع، والتي لا يفتأ قلبها يدق عالقا عند نقطة ثابتة، والتي يستمر عقرباها في الدوران طيلة حياتها حول أفكار بعينها، ولكنها لا تصل أبدا إلى أي مكان.

جلست أنيتا للحظة في المكتب... وظلت تحدق في الأوراق المطروحة أمامها. لكن آلية الساعة بدت وقد علقت في مكان ما. وآلية قلبها كذلك على وشك التوقف عن دقاتها. كتبت طلبا بإجازة وخرجت.

وخروجا على عادة ألفتها طويلا، جاءت إلى موقف الحافلة في

المحطة حيث اعتادت أن تستقلها إلى بيتها. لكنها عندما جاءت الحافلة التي تقصد ذلك الاتجاه، وبرغم العادة المألوفة طويلا، فشلت في الصعود إليها.

ما أن غادرت الحافلة، حتى عمدت أنيتا إلى الطريق. لم كانت تمشي في هذا الشارع؟ وبأي شارع سيلتقي؟ وأين سينعطف ذلك الشارع؟ وإلى أين سينتهي؟ كانت أنيتا ذاهلة عن كل ذلك. لقد بدا لها أنها كانت تمشي وتمشي حتى توقفت إلى جانب سرير ساجار، وأنها تناوله الدواء... الآن تعد له كوبا من الشاي.... والآن تجلس على طرف فراشه مدلّكة قدميه.... والآن...

أطلقت سيارة قادمة من خلفها نفيرها بقوة لتشعر بأن شيئا صك رأسها فتحسست عليه بكلتا يديها. بعدها شعرت بالتعب فجلست على ربوة حيث تقاطع الطريق من أمامها، تحت ظل شجرة.

كان هناك على جانبها مقعد يبعد قليلا، تحت شجرة أخرى. ومقعد آخر أبعد، لكن أنيتا فضّلت ملمس البرودة في العشب الناعم. أخذت تربت على العشب بكلتا يديها، خلعت مداسها وأراحت باطني قدميها على العشب.

ارتاحت أطراف أنيتا في خدر ناعم. برودة الأرض تتسلق عبر قدميها حتى تلطفت أعصابها، إلى قمة الرأس. أخذت أنيتا تفكر، «لست أفهم هذا. الطريقة التي أتصرف بها، أفكر في شيء، وأفعل آخر، إنه لخطئي وحدي. لن يحقق في النهاية أي نفع لأي كان. بهذه الطريقة، أستطيع أن أرى بوضوح أنني سأقتاد نفسي إلى ما وراء القضبان في مصحّة للمجانين، بيدي هاتين». ارتعشت أنيتا على خاطر الجنون «الموت أرحم من أن أعيش مختلة...».

كانت شجرة «الدارسين» تنشر زهورها الصفراء. ضمّت أنيتا حفنة من الزهور ووضعتها على عينيها، متفكرة، «هذان طريقان سالكان من أمامي. أحدهما أراه مؤديا مباشرة إلى المصحّة، والآخر... لاأعرف

حتى إلى أين يتجه، ولا عدد العقبات التي على جانبيه. عوائق حياتية، عوائق شرعية..وقد يكون الموت منتهى العقبات»

استحضرت أنيتا في ذهنها أفظع حكم استبدادي يمكن أن يسدده القدر إليها، ثم أسرّت لنفسها بحسم، «ومع ذلك، فإنه لأرحم أن آخذ هذا السبيل، بدلا من الآخر.»

لبست أنيتا مداسها وانتفضت على قدميها، كما لو كانت ماضية قدما على طريق اختيارها للتو واللحظة.

الفصـــل الثامن

ألقت أنيتا نظرة واحدة على كل من متعلقاتها. تطلعت أيضا إلى الملابس في خزانتها ثم أدارت ظهرها إليها كما لو أن الغسّال قد خلط ملابس من بيوت عدة، فهي تتفحص كل واحد منها قائلة، «هذا ليس لي، ولا هذا». وتمعنت أنيتا في كل شيء في البيت وقالت لنفسها، «في هذا البيت يخصني شيء واحد فقط، طفلي.»

كتبت أنيتا الى مدير المدرسة تسأله أن يرفع اسم رشمي من الكشوف وأن يعطيه شهادة مغادرة، حتى يمكنها أن تذهب إلى مدينة أخرى وتضعه في مدرسة هناك.

في الصباح التالي، لم تدعه يذهب إلى المدرسة. قالت لزوجها، «سوف آخذ شهادته من المدرسة اليوم وأرحل». توقف زوجها متطلعا إليها للحظة، بعدها، ومن دون رد، تناول أوراقه وذهب إلى العمل.

عدّت أنيتا المبلغ الذي ادخرته من مرتبها وذهبت مع الطفل لشراء بعض الأشياء من السوق. أنهت مشترياتها قرابة الظهيرة وتوجهت بسرعة إلى مدرسته.

«أنا آسف، لا نستطيع أن نقدم لكم شهادة»، قال المدير بلطف. وهكذا جاء الرفض كلبنة سقطت على قدمي أنيتا.

«لكن من دون شهادة، لا يمكن أن يقبل في أي مكان»

«كلا، لا يمكن، تلك حقيقة»

«إذن لِمَ لا تعطوننا..»

«لا نستطيع أن نصدر شهادة دونما إذن من والده، لأنه ولي أمره الشرعي. وقد جاء والده هذا الصباح ليمنعنا من ذلك»

عندما خرجت أنيتا من غرفة المدير، كانت الخطة التي رسمتها لنفسها قد انغمست في دموع عينيها.

في ذلك الوقت، لم تكن أنيتا من يقتاد الطفل بإصبعها، وإنما الطفل هو الذي يعينها على الثبات. وبعدما أوصلها الطفل بعناية إلى البيت، وضع يدا على جبينها ليجده حارا بسبب ارتفاع الحمّى.

هذه الجدران لن تتقيَّض أبدا... أبدا، قالت أنيتا ذلك بشيء من اللاوعي، وأجهشت بالبكاء.

«مامي»، ناداها الطفل، وبلهفة، تمسكت بها قبضتاه فضمها إلى صدره، «لا تبكي، مامي... عندما أكبر.. سأسقط كل هذه الجدران..»

خلال دموعها، حملقت أنيتا في وجه الطفل. كانت عيناها لا ترى بوضوح إثر الحمى. وجه الطفل لم يبد كوجه طفل أبدا في عينيها، لقد بدا لها كوجه رجل قوي، وجه صديق حقيقي، محب حقيقي، والذي لم يتكلم الآن مع مجرد أم، لكن مع امرأة عاجزة في محنة. فالطفل لا يعرف شيئا عن تعاسة الأم. إنه لا يحتمل أن يرى دموع أمه. وكرجل ذي كرامة، يريد أن يمسح الدموع من على خد امرأة كريمة.

ضمّت أنيتا الطفل إلى صدرها بقوة. عانقت فيه لحمها ودمها، ثم غابت تحت حرارة الحمّى.

كان الليل قد أوشك على نهايته عندما انقلبت أنيتا في فراشها. شعرت برقبتها متصلبة ومتوترة كما لو أنها تحت ثقل كتلة من ألحفة الكتان المبتلة والباردة. دعكت رأسها قليلا بيديها. حقيقة، كان ملفوفا بفوطة رطبة وباردة، فأخذت تسحبها بيدها.

«ليس الآن، دعي الحمّى تنخفض أكثر..» قالت امرأة تجلس بالجوار. لم تتعرف أنيتا على الوجه.

حاولت أنيتا أن تخمّن أين هي، ومن تكون هذه المرأة، لكنها لم تستطع أن تتعرف على أي شيء، أو تطلب أي شيء. شيء ما كالنعاس العميق يملأ عينيها بلا حدود.

عندما استيقظت أنيتا في اليوم التالي، أبصرت زوجها يقف بجانب سريرها متحدثا لأحد ما. ربما كان الرجل الآخر طبيبا، لأنها بمجرد أن استعادت وعيها، انحنى إلى الأمام يجس جبهتها، بعد ذلك قال ليلة البارحة للمرأة شيئا عن إعطائها الدواء. تصورت أنيتا هذه المرأة ممرضة بمعية الطبيب.

«رشمي...» كانت عينا أنيتا تبحثان في الغرفة.

«ذهب للمدرسة». قال زوجها وهو يقترب منها متسائلا: «هل هناك شيء آخر ترغبين فيه؟»

«سيجارة...»

استشار زوجها الطبيب ثم أعطاها سيجارة. لكن فم أنيتا كان ممتلئا بمذاق مر، أو ربما كانت شدة الحمّى. وجدت مذاق السيجارة كريها، فاستسلمت ووضعتها جانبا...

كل مرة تظهر عينا أنيتا شيئا من الوعي، تأخذ في التطلع باحثة في الغرفة ومتسائلة، «رشمي؟»...

«إنه في المدرسة». يخبرها كائن من كان بجوار سريرها.

بعد ذلك أخذت الحمى لديها مسارا ثابتا. دائما منخفضة، ولساعات قليلة. وذات مساء عندما طلبت رشمي وجاءها الجواب المعهود، جلست مهتاجة في فراشها، «ليس هذا وقت المدرسة، نحن في الليل تقريبا». احتجّت.

«رشمي في مدرسة داخلية... لم يعد مرتاحا هنا، تعرفين». تطلعت أنيتا بانتباه إلى المرأة التي أخبرتها بذلك... كانت امرأة أخرى، ليست الممرضة المعتادة.

«من أنت؟»

«لم تعرفيني. أنا شانتي»

«شانتي؟» اعتصرت أنيتا ذاكرتها. تذكرت أنها رأت هذه المرأة في مكان ما. في تلك الليلة ذكر لها زوجها أن شانتي قريبة له من بعيد، وأنها أُرسلت خصيصا لرعايتها.

انخفضت حرارة أنيتا. قد ترتفع حرارتها قليلا مقدار ساعة تقريبا كلما أخذت حماما أو حاولت أن تهيئ نفسها أو تغير ملابسها. لكن أنيتا كانت مندهشة لإحساسها بتعرض أطرافها للهزال ببطء. كانت تشعر دائما بالتعب وبشيء كان يبدد حياتها قليلا قليلا.

امتنعت أنيتا عن أخذ الدواء، ولكنها الآن بدأت تتألم حتى من جرعة الماء. كثيرا ما عانت من العطش، وعندما تأخذ رشفة ماء، تكتشف أن لسانها وحلقومها كانا أكثر ظمأً. قروح غريبة غطّت يديها وقدميها، وبدا لها أن كل عصب من أعصابها قد أصابه الجفاف.

إنه منتصف الليل، وحتى في منامها، فإن لسان أنيتا الجاف يجعلها تلهث من أجل أن تتنفس. أفاقت قلقة.

«ماء» نادت أنيتا. لكنها تراجع نفسها، لا ينبغي أن توقظ شانتي في ذلك الوقت من الليل. نهضت من فراشها وبدأت البحث عن مكان احتمال وجود الماء.

لابد أنها اصطدمت بشيء ما، لأن شانتي صحت وأعادتها بسرعة إلى فراشها قائلة، «سأحضر لك الماء»

لعله لم يكن هناك ماء في الغرفة. ذهبت شانتي عبر الغرفة المجاورة لتحضر الماء من المطبخ. لم تغب كثيرا، بينما شعرت أنيتا بنفسها تختنق من العطش وغير قادرة على الانتظار حتى ولا دقيقة.

ما أن وصلت أنيتا المطبخ بخطى متعثرة، إلا وكانت شانتي قد ملأت للتوّ كأسا بالماء من الإبريق، ووضعت فيه قطرات من قارورة ضاربة إلى البياض.

أعيا أنيتا النطق. أرادت أن تصرخ على شانتي، إلا أن الأرجح أن صوتا لم يصدر من حنجرتها، ذلك أن أنيتا نفسها لم تسمع شيئا. أخذت شانتي الكأس واستدارت لتجد أنيتا تقف أمامها. التقت عيونهما ونظرتا في بعضهما بعضاً. أرادت شانتي أن تقول شيئا فغصّت بكلماتها. شجّع ذلك أنيتا بعض الشيء وسألت بعنف، «ماالذي وضعته في الماء؟»

«لا شيء...» أجابت شانتي، ليس بلسانها قدر ما كان بإشارة من رأسها. بسبب اضطرابها، لم تستطع أنيتا أن تلاحظ أين وضعت شانتي القارورة. وسألت شانتي، «أين الزجاجة التي كانت في يدك الآن؟»

ابتسمت شانتي وأجابت برقة، «كنت ترفضين تناول الدواء، بينما أصر الطبيب على إعطائه لك. لذا، وضعت منه قطرتين في الماء.»

أخذت أنيتا الكأس وعاينت الماء. لم يكن هناك تغير في اللون، كما لم توجد رائحة. لكنها لم تشربه. فقط سألت، «ما هذا الدواء؟ أريني الزجاجة».

انتزعت شانتي قارورة صغيرة من ثنايا الساري الذي ترتديه وسلمتها إليها. لم يكن ثمة اسم على القارورة. كان الدواء سائلا وبلا لون. أفرغت أنيتا الكأس، غسلته وملأته من الإبريق وشربت. ووضعت القارورة بعيدا، بحرص.

عندما استلقت على فراشها وضعت القارورة بجانب مخدتها، لكنها لم تلبث أن نهضت بسرعة، أخذت المفاتيح، فتحت الخزانة وأقفلت على القارورة. ثم استلقت يقظة شطرا من الليل.

لدى استيقظاها في اليوم التالي، أحضر لها خادمها كوبا من الشاي قائلا، «تأخرت في النوم هذا الصباح. أعددت لك الشاي في الساعة المعتادة، لكنه أصبح باردا. حاولت إيقاظك ولم تستيقظي فأعددت الشاي مرة أخرى.»

أخذت أنيتا رشفة فعادت أحداث الليلة الماضية إلى ذهنها، «أين شانتي؟» هتفت فجأة.

«السيدة شانتي؟ لقد غادرت بقطار الصباح»

أخذت أنيتا تنظر إلى الخادم وهي تمسك كوب الشاي بيدها محاولة استيعاب كلماته.

«لا أعرف ما الذي حدث. كان ذلك قبل الفجر بكثير حين أيقظتني لأستدعي لها تونجا*، وغادرت إلى المحطة»

«أين السيد؟» سألت أنيتا باحثة عن ربطة مفاتيح تحت مخدتها.

«ربما في الحمام». أجاب الخادم، وأضاف «لكنك لا تشربين شايك. أليس جيدا؟»

«سأشربه حالا». أجابته وهي ترفع المخدة لتبحث عن المفاتيح. المفاتيح لم تكن هناك. نظرت تحت السرير لترى إذا كانت الربطة قد سقطت من فوق الفراش. لم تكن هناك أيضا.

أوشكت أنيتا أن تنهض من فراشها بفزع لو لم تتذكر أنها رفعت أغطية وشراشف الفراش ووضعت المفاتيح بين الشراشف والفرشة في الليلة البارحة. رفعت أنيتا طرف الشراشف لتجد المفاتيح. أخذت الربطة بقبضتها ثم أخذت تشرب الشاي، رشفة رشفة.

* عربة بعجلتين يجرها حصان.

أتت أنيتا على شايها، وكانت ستستلقي ثانية لولا أن القلق عاودها من جديد. نهضت وفتحت الخزانة، فاعترتها صدمة. القارورة التي وضعتها البارحة هناك لا وجود لها الآن.

أرهقت نفسها بمجهود البحث في كل الأرفف. تركت الخزانة مواربة. وعادت إلى فراشها. هناك، انهمرت الدموع من عينيها. «ماكل هذا الذي فعلته شانتي؟... لم هي... ؟» وبعيدا عن أي فكرة أخرى، فكّرت، إن كان العالم يحاول قتلها مخادعة، فلم لا تقتل نفسها مباشرة.

الفصل التاسع

إن البقية الباقية من حياة أنيتا الآن تمتد أمامها كبحر لا حدود له. فهي وقد أُلقي بها عبر هذه المياه الهائجة، لم يبق لها غير مهلة عرضية خاطفة من خلال شيئين ليس إلا، الأول طفلها، والثاني كل ما يمكن أن تطاله يداها من الكتب.

متى ما كتبت أنيتا إلى الطفل في مقرّه، فإن خطّها الناضج والمصقول جيدا يأخذ شكلا طفوليا. وحينما يجيب الطفل، فإن يده البريئة والناحلة تأخذ مظهر النضج. وهكذا فإن حروف أنيتا لطفلها وحروف الطفل لأمه تقف على مقياس من النوعية المتقاربة.

كان هناك معرض في المدينة لرسّام يدعى إقبال. كثيرا ما فكرت أنيتا في الذهاب لمشاهدته، بيد أن ساقيها كانتا من شدة الخمول بما لايدع تحقيق الرغبة ممكنا. وذات يوم، شيء ما في رسالة طفلها وآخر قرأته في كتاب، أعطياها العزم اللازم كي تقرر الذهاب. نهضت وذهبت إلى الحمام لتغتسل وتستعد.

بدخولها الحمام، وقعت عيناها على فوطة معلقة على مشجب. وقفت متصلبة في موضعها، ذلك أنها رأت حافة الفوطة ملطخة بالدم.

أصيب رأس أنيتا بدوار، وساقاها بارتجاف، ثم انهارت على أرضية الحمّام و جلست ممسكة برأسها لبعض الوقت، وفجأة شعرت بالظمأ.

رفعت أنيتا رأسها تجاه حنفية الماء التي كانت مغلقة، ولكن يمكن فتحها. مدت يديها لتعالجها دون النظر إلى أعلى لأنها لم تشأ المجازفة فيغشيها منظر الدم. انهمر الماء من الحنفية، ولكن حالما قعّرت أنيتا كفيها تحته لتشرب، خطر لها أن الدم يتقطر من الفوطة ويمتزج بالماء بين يديها. جفلت من مجرد الفكرة فسحبت يديها. حاولت مرة ثانية وملأت كفيها ببعض منه، وأهدرته. ثم ملأت كفيها بالماء ثالثة

وأخذت تحدق به بعناية. استدارت عيناها دونما قصد تجاه الفوطة الملطخة بالدماء على المشجب.

حملقت أنيتا في الفوطة، ثم أمعنت في الحملقة، ذلك أنه لا يوجد أي دم على الفوطة. كانت الفوطة بيضاء بكاملها.

ظل الماء ينحدر من الحنفية إلى أن طفحت به كفاها ففاض. لكنها نسيت أن تشرب. بقيت ترنو إلى الفوطة وتبحث عن الدم الذي أبصرته يلطخ حاشتيها.

وأخيرا نهضت أنيتا ووضعت كلتا يديها على الفوطة متفحصة حواشيها الأربعة. كان على أحد أطرافها رقعة حمراء تحمل اسم المعمل: العلامةالحمراء هذه، هي ما رأته. فكرت أنيتا برباطة جأش، وكان قلبها مترعا، «لقد نسيت ما فعلته شانتي. لكنها على الأرجح لن تنساني أبدا ... هي لم ترد لي أن أن أعيش...» ذات الأفكار القديمة عن الموت، القتل، والدم...

وأنيتا لم تتابع المسألة بعد ذلك اليوم حين أبصرت شانتي وهي تضيف شيئا إلى شرابها. لقد أسقطت المسألة. إنها لم تذهب حتى إلى تصور السبب الذي دفع بشانتي لذلك. هل فعلته بملء إرادتها أم بطلب من أحد؟ وإن كان ذلك، فمن أمرها بالقيام به؟

لم تعط أنيتا اهتماما كبيرا لكل هذا أبداً. ولكن في داخل سلسلة أفكارها، ومتى ما قاد ذلك إلى السؤال (من أمرها أن تفعلها)، فإن ذلك يجعل أنيتا تتوقف عن مواصلة التفكير. لقد كان ذلك يزعجها، ولذلك فإنها كانت دائما تستسلم عند هذه النقطة.

في المعرض، تفحصت أنيتا كل لوحةعن قرب، تتوقف عند كل واحدة لمدة طويلة، متمعنة بعناية. هناك تلاعب بالألوان... وهنا تلاعب بالأفكار... كانت تتأمل الأعمال وتتذوقها. لكن رسما على وجه الخصوص كان هناك، يمثل جذع إنسان وقد نبتت له عيون كثيرة غطته، فكأنه يرى بمئات الأعين ما يراه الآخرون بعينين اثنتين.

اتجهت أنيتا إلى هذا الرسم وتوقفت هناك لا تريم.

جميع أعضاء أنيتا أصبحت مفرغة في عيون. كما لو أن الرسم جعلها نسخة منه. من يدري إلى أين تتطلع العيون التي في تصور الرسام، لكن هذه النسخة الواقفة على أرضية المعرض كانت ترى ساجار خلال الآلاف من عيون خيالها.

«أعجبتك هذه الصورة؟» عندما سألها الرجل لدى اقترابه منها هذا السؤال نظرت إليه بانشداه ثم إلى الصالة التي خلت الآن.

«أهي الآن الثامنة تماما؟» تساءلت أنيتا.

«نعم، والربع. لذلك غادر الجميع»

«لقد نسيت الوقت تماما»

«ذلك يعني أن رسوماتي ناجحة...»

«بماذا سميتها؟»

«ذكرى»

«يا لها من شيء تلك الذكرى... تستطيع أن تقبض على الزمان باليد وتمنع مروره»

لم يعلق إقبال.حدّقت أنيتا في وجهه بإعجاب. كان وجها بريئا، لكنه ذكي ونضر.

«كيف استطعت أن تحقق كل هذا في مثل هذا العمرالصغير؟»

«هل أبدو صغيرا جدا؟»

جعل ذلك أنيتا تضحك. نظرت إلى وجهه مرة أخرى وقالت، «كلا، أي واحد يتقن مثل هذا الفن لا يمكن أن يدعى صغيرا».

كانت أنيتا تهم بمغادرة المكان عندما قال لها إقبال، «لم تطّلعي على هذه الرسوم التي على يمينك»

«حسن، لقد أزف الوقت. سوف آتي غدا أو بعد غد»

«غدا؟»

«لا بأس، غدا»

كان وعدا بسيطا غير ذي بال، لكن أنيتا لاحظت ما أحدثه من تورّد في وجه إقبال. بالعودة إلى الشارع ثانية، شعرت أنيتا بأثر من الحسد لإقبال، «كم محظوظون الناس الذين يتأثرون حتى بالصغير من وعود الحياة».

في المساء التالي، عندما تركت أنيتامكتبها للذهاب إلى البيت، عاد وعد الأمس إلى ذهنها فتوجهت إلى المعرض بدلا من البيت.

كان هناك عدد قليل من الناس في الصالة. وبمجرد أن أبصر إقبال أنيتا حتى اندفع إليها يحييها بدفء كالمعرفة القديمة. طاف بها في الصالة وأخذ يطلعها على الرسومات.

وفيماهي تتطلع إلى الرسومات، كانت توّجه نظرها أحيانا إلى وجه إقبال وتفكر، «كيف حقق مثل هذه الخبرة في الفن وهو في هذا العمر؟»

«إلى متى سيستمر المعرض هنا؟» سألته بعد لحظة.

«خمسة أيام أخرى»

«سآتي ثانية في يوم آخر. وعليّ أن أعجّل اليوم»

«لماذا؟»

إقبال نفسه ضحك على هذه الـ (لماذا؟)، وكذلك أنيتا. ولكي تجعل السؤال يبدو طبيعيا قالت بعدم تحفظ مماثل، «في الحقيقة أتيت مباشرة من المكتب. لم أذهب إلى البيت، وأنا متعبة».

«تريدين بعض الشاي؟»

« نعم، لكن سآخذه في البيت»

«يمكنك أن تأخذيه هنا»

كان على أنيتا أن تجيب بينما لاحظت أن الدعوة قد أحرجت إقبال. لربما يكون نادماً بعض الشيء، كما لو أنه لم يعن ما يقول.

«وهل ستخبرني قصة هذه اللوحة على الشاي؟» سألته أنيتا ضاحكة.

«أية لوحة؟»

«ذات العيون»

عضّ إقبال شفته بخجل، ثم هز رأسه: «نعم»

كان هناك عدد من مقاهي الشاي الجيدة على الطريق خارج صالة العرض. ذهبت أنيتا وإقبال إلى أفضلها وجلسا.

«حقيقة إقبال، كيف تكون بهذه الحرفية في مثل هذا السن؟»

«لست صغيرا كما أبدو. سوف تدهشين لو رأيت أخي الأصغر، طويل وثقيل، كما أنه قوي... عندما كنت طفلا اعتدت أن أقول لجدتي... لابد أنها أجاعت أمي عندما حان مولدي، وأطعمتها الزبدة عندما حان دور أخي في الولادة».

«إذن لعل جدتك لم تعط أمك زبدة وقت مولدك، بل شيئا خاصا بالتأكيد مما جعلك موهوبا».

«نعم، كذلك هي اعتادت ذكر الشيء نفسه. لقد فقدت بصرها إلا أنها، بيديها، كانت تتحسس ذراعي النحيلتين، ثم تقّبل رأسي وتقول لي إنها اعتادت أن تغذّي أمي بجرعات خاصة عندما كانت حاملا بي، (تذكر كلماتي)، تقول لي، (سوف تكبر لتكون بارعا جدا).»

«وأمك...؟»

«توفيت في طفولتي»

«من أعطاك اهتمامك بالفن؟»

«لا أحد على الخصوص. أنا من مواليد قرية، ونشأة ريفية. لم يكن هناك شيء سوى القمح أو القطن لمئات الأميال من حولنا. بالنسبة لأبناء الفلاحين ممن لم يذهبوا إلى المدرسة، فإنهم لم يكونوا لينتظروا الإفطار في تلك الأيام. إنهم يذهبون مباشرة من نومهم إلى الحقول منذ الفجر. فقط أبناء المدارس يُعطون حليبا أو لبنا. كنت نحيلا من البداية ولا أساوي شيئا في الحقول، لذا أرسلت إلى المدرسة. كانت جدتي تعطيني خبزا إضافة إلى ذلك كل صباح».

«هل أحببت الدراسة؟»

«ليس كثيرا، فلم أكن مجدا، لكنني تمكنت من تمييز نفسي في الفصل. وأفظع إيذاء تلقيته في المدرسة، كان خشونة الأولاد في سني»

«لماذا؟»

«تعرفين، كانوا في سني،نعم، لكنهم يبدون أكبر مني بكثير. فعندما ألعب ـ تيلة* ـ معهم وأفوز، فإنهم ينتزعونها مني، ويضربونني علاوة على ذلك، ولم يكن باستطاعتي أن أرد، لذافقد عوضت نفسي بطريقة أخرى»

«ربما كانت إرادة العوز هذه، ما جعل منك فنانا»

«أتذكر أنني كنت ألوّن الورق بحبر أخضر وأصنع منه ريشا جميلا لطاووس صغير. كان ذلك ما يجلعهم يشعرون بأنهم صغار ويتوسلون للحصول عليه»

«وبعدها؟»

«بعدها، في إحدى العطل الصيفية، قررت أن أذهب للمدينة. وهناك، أصبحت تلميذا في الفنون. كنت آكل في بعض المطاعم الرخيصة وأغسل فُرَش أستاذي وأخلط له الألوان، وأتطلع في الرسومات طوال اليوم. كانت هناك أشياء أخرى تستحق الفرجة في المدينة، عروض وما شاكل. ولكن لم يكن لدي المال للصرف على تلك الأشياء.كنت فقط أتوقف متطلعا في الصور أو مستمعا إلى الأغاني. ومرة...».

«نعم ما الذي حدث؟»

«إن تذكّرها يجعل الواحد يضحك الآن»

---

* كرة رخامية أو زجاجية صغيرة الحجم يلعب بها الصغار.

«ذات مرة جاءت كاجان بفرقتها إلى مسرح المدينة، كاجان بلحمها ودمها، في عروض غناء ورقص. كنت متشوقا لمشاهدتها. كانت أرخص تذكرة بعشر بيزات، لكنني لم أمتلك حتى عشر بيزات. كنت أراقب باعة الصودا والثلج الصغار بحسد، مفكرا في سهولة دخولهم ومشاهدتهم كاجان.»

«ولم تبع الصودا والثلج حينها؟»

«نعم، فعلتها. في البداية رفض صاحب الدكان أن يعطيني زجاجات الصودا، لكنه رق لي بعد ذلك. دخلت وبعت زجاجة أو اثنتين، ثم وضعت البقية جانبا وتابعت مشاهدة كاجان».

«ثم ذهبت إلى البيت ورسمت صورة لها»

«صور عدة...».

«وصورة (الذكرى) هذه، ذات العيون؟»

«تلك؟... تريدين أن تستوضحي كل شيء الآن؟ كل ما حدثتك عنه اليوم، لم أذكره لأحد من قبل. لعلني فعلت ذلك لأنني أردت أن أبدو كصديق لك»

«تقيم صداقة معي؟»

«أريد أن أرسم صورة لك»

«لا أعتقد أنك رأيتني أبدا قبل أمس»

«رأيتك أثناء حياة والدك. كنت متزوجة وفي زيارة لبيت والدك. لقد بلغني ذلك وذهبت لرؤيتك»

«لا أتذكر شيئا»

«لن تتذكري، لأنك لم تعلمي بذلك. أعتقد أنك كنت نائمة ولم يشأ إيقاظك»

«فعدت أدراجك؟»

«نعم، عدت. ولم أعرف لماذا، ولكني قررت ألا أعودإلى بيتكم ثانية»

رمقت أنيتا إقبال باندهاش. كم هو بريء وعنيد. وتفكرت في داخلها، «ربما كان جميع الفنانين بذلك العناد، بذلك الشاغل من احترام الذات»

«بم تفكرين؟»

«أي سبب يكمن خلف عنادك. كنت أفكر»

«لم أتمكن من معرفة السبب شخصيا. لكن العهد على ذلك قائم حتى الآن. فلو لم تأت لمشاهدة الرسوم بالأمس، لما كان اللقاء بك ممكنا»

«أتصور أن أحدا ما بالذات قام بإيذائك، وتنفس أنت بالغضب على الجميع.»

«ربما..»

«كنت ستخبرني..»

«عندما كنت في مدرسة الفنون كانت هناك طالبة ـ فتاة تدعى مانجيت. أعجبت بها كثيرا. لم أستطع الجلوس أمامها ورسمها. لذا كنت أجلس على مبعدة قليلة من الكرسي، وأرسم لها اسكتشات. ربما احتفظت بواحد منها... شخصيا لم أستطع أن أطلعها على الاسكتشات التي رسمت لها»

«لماذا؟»

«كانت ابنة رجل ثري جدا. كانت معتادة على المجيء والذهاب بسيارة. ولقد اعتقدت بأنها ستغضب لو علمت أنني أرسم لها اسكتشات»

«لم تقل لها أي شيء مطلقا؟»

«أبدا. لكن، ظللت لسنوات أكتب أول حرف من اسمها مع اسمي»

«م. إقبال»

«نعم، م. إقبال»

«والعينان اللتان قد أبصرتاها في حينها، أصبحتا الآن مئات من العيون تبحث عنها على الدوام؟»

أيقظت ملاحظة أنيتا قصة إقبال النائمة. ربما لم تكن أبدا نائمة. إلا أن يقظتها لم تكن أبدا بينة في عيني إقبال، ولم تذبها أبدا من قبل في دموع كثيرة كهذه.

مسح إقبال دموعه بسرعة وقال «لم أبك أبدا، ولا أعرف لم بكيت الآن».

حدّق إقبال في وجه أنيتا باهتمام ونقّب في قلبه: «ما الذي جعلني أبكي أمام هذه المرأة اليوم؟ كلّمتها كما لم أكلم أحدا آخر. في وجهها أبحث عن وجه أمي المتوفاة، أو ما نجيت التي فقدتها». وكما فكر في ذلك ببساطة، أسرّه لأنيتا.

ضحكت أنيتا، «إنني أصغر من أن أكون أمك، وأكبر من أن أكون ما نجيت. لكن هل من الضروري أن تجد علاقة خاصة؟ إن تعارف اللحظة لايتطلب علاقة ولا أي سن».

«إنني أكثر سعادة من الأمس»

«صحيح؟»

«صحيح»

الفصـــــل العاشر

بعد الغداء، غالبا ما تذهب أنيتا إلى المكتبة التي تبعد بضع دقائق من مكتبها.

كانت ظهيرة صيف. غرفة المكتب معتدلة البرودة، ولابد أن تكون المكتبة كذلك. لكن المسافة بينهما... مجرد التفكير في ذلك يلسع قدميها.

قطعت أنيتا أكبر جزء من ساعة الغداء لتحزم أمرها. لم يبق سوى عشرين دقيقة عندما انقادت قدماها إلى المكتبة، وكأن أحدا ينادي، لا يناديها هي، وإنما ينادي قدميها.

استنشقت أنيتا حرارة الطريق في نفس واحد. فتحت باب قاعة المكتبة. خطت إلى الداخل وسحبت نفسا طويلا من البرودة إلى داخلها. ماكادت تستمتع بذلك حتى وقعت عيناها على آخر النشرات مطروحة على الطاولة، وفي نشرة أسبوعية مفتوحة، هناك صورة لساجار وفتاة تقف إلى جانبه. يقول التعليق أسفل الصورة: «هذا الرباط من الصداقة، يحيل المشروع إلى رباط الزوجية» رقصت الكلمات أمام عينيها وسبحت حتى بدت الجملة دونما معنى. لكن الكلمات عادت لمواضعها ثانية وبدأت معانيها تلح في أذني أنيتا «ساجار نبذك أنيتا. نبذك إلى الأبد». بدا لأنيتا أن الأنفاس العليلة التي استنشقتها للتو ستكون الأخيرة في حياتها. إن قدرها الآن، وحتى نهاية حياتها، أن تمشي على درب الشموس الحارقة، والذي يمتد بلا نهاية أمام عينيها.

خلال نافذة المكتبة، تطلعت أنيتا إلى الشارع في الخارج. كان يومض ويرتجف في اللهيب الذي يتصاعد منه. خرجت واستقرت على الطريق وهي توازن النار التي في قلبها إزاءالنار التي في الخارج.

« يا لها من عقوبة فظيعة لخطيئة واحدة». هتفت وعضت شفتها

في الحال. «كل إنسان تبدو له أخطاؤه صغيرة، والعقوبة الموقعة من جانب الآخر تبدو كبيرة». استمرت تغمغم: «إن أي واحد يزدري حظه، يستحق هذا النوع من الجزاء... من ذا الذي يرفض الحظ وهو على عتبة داره؟... أنا فعلت ذلك..» واستمرت على المنوال نفسه. «الله يمنح المغفرة مرّات، يا لساجار، إنك لم تغفر ولا مرة...».

لم تعد أنيتا قادرة على أن تبصر أي شيء أمام عينيها، فقد غرق الطريق في دموعها.

مسحت أنيتا عينيها بطرف الساري. «لا يمكن أن أستمر في البكاء وأنا في الشوارع» كانت توبّخ نفسها وتبحث حولها عن موضع منعزل حيث يمكنها أن تبكي كما تشاء.

(ليس في المكتب، ولا في البيت). حدّثت نفسها. تركت الشارع الذي يؤدي إلى المكتب، وكذلك الذي يؤدي إلى البيت، وأخذت الشارع الذي يؤدي إلى مدرسة ولدها. لم يكن هناك ما تريد إبلاغه للطفل، ولا ما تريد أن تسأل،لكنها تريد أن تمسح الدموع عن عينيها مّرة بكفّه الصغيرة. إنها تريد أن تبكي في ظل يديه.

(لن يدَعوني أراه اليوم. إنهم يسمحون بزيارة واحدة خلال الشهر...) تذكرت أنيتا ذلك وتعثرت خطاها.

«كثيرة هي الطرق؛ لكن واحدا لا يؤدي إلى ذلك الموضع... حيث بإمكان الواحد أن يجلس ويبكي». وخطر لأنيتا، لو استطاعت أن تذهب إلى ذلك الفندق حالا. لو استطاعت أن تقف في تلك الغرفة من ذلك الفندق، لو استطاعت أن تجلس على ذلك السرير في تلك الغرفة حيث انتزعت الصفحة التي كتب عليها مصيرها، فلربما استطاع ذلك الموضع أن ينهي نزيف دموعها. وهكذا أخذت أنيتا الشارع الذي يؤدي إلى الفندق.

حال وقوفها خارج الفندق، تطلعت أنيتا إلى السيارة الواقفة هناك. لاحظت الأمتعة التي كان يتم إنزالها من السيارات، فخطر لها، «ليس لدي أمتعة. من سيعطيني غرفة في حين ليس لدي أمتعة على الإطلاق؟...».

ربما كان بسبب من الصراع العنيف الذي في داخلها، أو همومها الأخرى، لكن رأسها أصيب بدوار. أشارت أنيتا إلى تاكسي وركبت دونما كلمة. عندما وصلا إلى تقاطع، سألها السائق إلى أي طريق تريد الذهاب.

كان جبين أنيتا يحترق من الحمّى، «إلى أين أريد أن أذهب؟» سألت نفسها تحت حرارة الحمّى، ورفعت يدها اليمنى لتفتح النافذة لهواء نقي فأخذها السائق كإشارة وانحرف إلى اليمين.

وصلا إلى تقاطع آخر، ومرة ثانية سأل السائق عن الاتجاه. وبتطلعها خارج النافذة، أبصرت أنيتا الكلمة «معرض» على بناية في الشارع الذي على يسارها. وفي الحال تذكرت إقبال فأومأت للسائق كي يتوقف عند المبنى.

لايزال هناك معرض قائم في المبنى. لكن معرض رسومات إقبال قد انتهى منذ أيام عدة ، ولذا فإن إقبال غير موجود. كان إقبال قد التقى بها في المعرض أربع مرات أو خمس حتى الآن، ومرتين أتى فيهما إلى المكتب. لكن لم يكن لديها عنوان بيته. كانت على وشك العودةخائبة عندما أعطاها أحدهم عنوان مرسمه وليس عنوان بيته. أعطت أنيتا سائق التاكسي العنوان ووضعت نفسها داخل السيارة في حالة أشبه بالوعي الكامل.

كان إقبال هناك. عندما طرقت أنيتا الباب ودخلت، تطلب ذلك منه بعض الوقت ليصدق أن أنيتا بحثت بالفعل عن عنوانه لتأتي إليه.

وبدلا من أن تأخذ كرسيا، فضّلت أن تجلس على ديوان خشبي طُرحت عليه أعداد مبعثرة من النشرات والملفات. جمعت بعض النشرات في كومة لتفسح مكانا لها، وأخرى لتقوم مقام الوسادة تحت رأسها.

«أعطني بعض الماء». طلبت أنيتا، وبعد أن شربت، سألت إقبال، «قل لي إقبال، هل عرفت يوما في حياتك لم يكن لديك فيه مكان تذهب إليه؟»

«حدث في لاهور. كنت أنهيت إمتحاني الأخير في مدرسة الفنون. أُعلنت النتيجة، وبناء على التعليمات، لم أستطع المكوث في السكن فقد جاوزت المدة بثلاثة أيام. وحوالي الحادية عشرة من الليلة الرابعة، ذكروني مرة أخرى بالتعليمات، فما كان مني إلا أن أخذت حقيبتي وخرجت. نعم خرجت، لكن دونما فكرة إلى أين. لذلك ذهبت إلى المحطة. في البداية، أخذت بعضا من الشاي كوسيلة للتغلب على النوم في الليل. أمضيت بعض الوقت أذرع الرصيف، ثم وصل قطار، أخبروني أنه يذهب إلى جوجرا نوالا، فكّرت أن بإمكاني الصعود إليه، أصل إلى هناك ثم أعود فيتكفل ذلك بمسألة اللَيل. وهكذا ركبت ذلك القطار...». أنهى إقبال حديثه برصانة غير ضرورية. لماذا وَجّهت ذلك السؤال بالذات حال وصولها؟ التفت إليها بقلق، «لم تسألين، أنيتا؟» لكن أنيتا لم تجب.

«أنيتا!»

«نعم؟»

«أستطيع أن أتصور أي شخص في موقف كهذا، وليس أنت»

«لماذا؟»

«ما الذي ينقصك؟ لديك بيتك الخاص.. و...»

«نعم، أبدو متماسكة جدا من الخارج، أليس كذلك؟ لكن...» رفعت أنيتا رأسها من مخدة النشرات وحدقت في إقبال قائلة، «أتعرف لماذا أتيت إلى مرسمك؟ لم أجد أي مكان للبكاء». تراجعت على كومة الأوراق ثانية وتنهدت، «حتى دموعك لا تحس بأنها دموعك تحت سقف شخص آخر»

سكت إقبال. لم يكن هناك ما يقال بعد سماعه لما تفوهت به.

كذلك أنيتا لم تضف شيئا على ذلك. ران صمت كئيب على الغرفة.

دموع متفرقة من عيني أنيتا المغمضتين تنحدر على خديها وتتساقط فوق الأوراق تحت رأسها، فيتوالى قطرها البطيء، عاملا فقط على تأكيد الصمت.

لعل أنيتا بعد ذلك قد نعست، أو أن خدر الحمّى قد استولى عليها، فلم تع أي شيء.

كان الظلام قد أوشك أن يعمّ الغرفة عندما فتحت أنيتا عينيها. لاحظت أن إقبال قد وضع بعض الأقمشة الناعمة بدلا من كومة الورق القاسية تحت رأسها، وأخذ يمسد شعرها. لم يكن لديها فكرة منذ متى كان على هذه الحال.

«أعددت لك شايا، ولابد أنه برد الآن. سأعد لك غيره»، ونهض.

تطلعت إليه أنيتا. كان نفس الوجه البرئ، الذكي، النضر، والذي أبصرته أول يوم في المعرض. وبنهوضه بدت عليه الكآبة والحزن، ربما لآلام أنيتا. تنهدت أنيتا بعمق وقالت، «إقبال، هل تتذكر ذلك اليوم عندما أخذنا الشاي معا لأول مرة، لقد تحدثنا كثيرا».

«نعم»

«لقد قلت شيئا ذلك اليوم»

«ماذا؟»

«إنك تبحث في وجهي عن وجه أمك المتوفاة أو وجه مانجيت»

«للحقيقة، أنيتا، مازلت أشعر كما لو أن وجهك وجه أمي، لكن أصغر بعض الشيء، أو وجه مانجيت، لكن أكبر بعض الشيء»

«وأنا أشعر هذا اليوم، إقبال، كما لو أن وجهك وجه ساجار، لكن أصغر بعض الشيء، أو وجه طفلي، لكن أنضج بعض الشيء»

وهكذا أخبرت إقبال، لدى تناول الشاي، قصة حياتها كاملة. كان إقبال أول رجل في حياتها تخبره كل شيء عن نفسها.

«لِمَ لم تخبري ساجار بكل ذلك؟ هذا الذي عن طفلك... وعن ملامحه. كيف يمكن لإنسان أن يستمر وجوده، هكذا، في خيال الآخر؟ لو أنه فقط كان يعرف»، تساءل إقبال مغيظا.

تنهدت أنيتا بعمق وقالت، «الحب يستطيع أن يفعل أي شيء، إقبال، لكنه لا يستطيع الكلام».

الفصـــل الحادي عشر

كانت الخامسة مساء، وأنيتا على وشك النهوض من كرسيِّها عندما هاتفها إقبال: «إن كان لديك ساعة زمان هذا اليوم، سآتي إلى مكتبك. لابد أنه نهاية الدوام وباستطاعتنا أن نجلس في أي مكان لمدة ساعة».

«حسن»، أجابت أنيتا، وأخذت في انتظار إقبال. لعله اتصل من مسافة بعيدة نوعا ما لأنه أخذ وقتا طويلا قبل أن يصل. كانت أنيتا متيقظة على صوت كل خطوة.

«أحب هذا النوع من الانتظار»، تفكرت أنيتا، «كان هناك دائما انتظار في حياتي، لكن من نوع مختلف جدا»

شعرت أنيتا لدى وقوفها في الشرفة أنها أكثر انتعاشا. «كنت أبني قصورا من الرمال، وهذا قصر آخر أبنيه الآن. لكن هنا، على الأقل، ثمة من يساعدني في حمل الرمال. أما هناك فقد كنت حاملة أثقالي الوحيدة».

وغرقت أنيتا في خواطر عميقة، «لم يحدث أبدا أن عرفت لماذا كنت أرغب في بناء قصور من الرمال. تنبجس الحيوية في يدي وقدمي من احتكاكها بهذا الرمل كما لو أنها لا تتمتع بحياة خاصة بها ...».

امتد الطريق جليا على مداه أمام عيني أنيتا، ومع أن إقبال قد جاء من ذلك الطريق، لم تشعر أنيتا بوصوله إلا عندما تقدم وناداها.

«آسف، تأخرت حتى أصل إلى هنا». قال ذلك بعجل.

«كلا»، لم تكن «كلا» قالت أنيتا، مجرد كياسة رسمية. كانت تقول لنفسها إنه جاء مبكرا أسرع من اللازم. لقد أرادت أن تكون منفردة لوقت أكثر بانتظار إقبال، وهي تتساءل لِمَ كانت بانتظاره.

«هل نذهب؟»

«إلى أين؟»

«إلى أي مكان»

«فليكن»

في مطعم لطيف بالجوار، طلب إقبال شايا وسأل أنيتا، ماذا ترغب أن تأخذ معه.

«لا شيء، فقط شاي»

«خذي شيئا ما. أي شيء. قليلا»

«بالنسبة لي، الشاي فقط، كل مساء»

«ولكن اليوم»

«ما الذي يميز اليوم؟»

«لا شيء. لا شيء على الخصوص، إطلاقا»

نمّ وجه إقبال عن حرج بيِّن، فأبدت أنيتا ملاحظة أخرى، «لابد أن هناك شيئا خاصا اليوم». بقي إقبال صامتا لبعض الوقت، ثم اعترف على الشاي بأنه كان عيد ميلاده.

نادت أنيتا على النادل وطلبت منه أيا ما كان طازجا.

«لِمَ لم تخبرني مبكرا؟»

«لم يكن هناك ما يستحق الذكر»

«أبدا؟»

«لم احتفل بعيد ميلادي أبدا حتى اليوم.ولا حتى أخبرت صديقا. أما اليوم، لا أدري لِمَ ، كنت منتظرا منذ الصباح، كي ما أخبرك»

«لِمَ لم تخبرني في الصباح عندما خابرت؟ كنت سأغادر المكتب لو تأخرت دقيقة أخرى»

«كنت مترددا طوال اليوم في إخبارك»

«تقصد فعلا أنك لم تحتفل به من قبل؟»

«أبدا»

«لماذا؟»

«كيف أحتفل وحدي؟» أجاب إقبال بخجل وهو يغمض عينيه، ثم أضاف، «هل تحتفلين بعيد ميلادك؟»

«عيد ميلادي أنا؟ .... كلا. لم أحتفل بميلادي أبدا. لكن، بالتأكيد، احتفلت بأعياد ميلاد الآخرين. وحدي»

«بعيد ميلاد ساجار؟»

«نعم»

«منفردة؟»

«وحدي»

«كيف؟»

«ذات مرة قرأت مذكرات امرأة إنجليزية اشتبهت فيها الحكومة الهنغارية على أنهاجاسوسة بريطانية، فألقي القبض عليها وأودعت

زنزانة السجن لسبع سنوات. حتى وهي في تلك الزنزانة المظلمة، اعتادت أن تحتفل بعيد الميلاد من كل عام. اعتادوا أن يعطوها خبزا أسود للأكل، ومن ذلك الخبز الأسود كانت تقطع حروفا وترتبها في سطرين على طاولة خشبية في الزنزانة. وتجعل من ذلك الخبز بيديها شكل زهرة. ومن الأدوية التي يعطيها لها طبيب السجن دوريا، تأخذ أوراقها الملونة، وبواسطتها تزركش الطاولة. كنت أحتفل بعيد ميلاد ساجار على هذه الشاكلة نوعا ما»

«وما كان ساجار ليطلع على ذلك؟»

«كلا، لا يعرف أي شيء»

عندما أحضر النادل الحساب، مدت إليه يدها أولا.

«لا تعجبني هذه الطريقة». علق إقبال مع تقبله الهزيمة، «لقد كنت أنا من دعاك على الشاي»

وبعد أن دفعت الحساب، قالت لإقبال، «كنت غالبا أحتفل باستمتاع مر، أما اليوم...».

«استمتاع مر؟»

«لأنه، حتى متعتي حينها كانت حزينة. أما اليوم فليست مُرّة. هذه ليست مسألة سهلة، أليس كذلك؟»

هناك على الشارع، بعد مغادرة المطعم، قالت أنيتا، «اليوم، إقبال، عندما كنت أنتظر قبل مجيئك، كنت أتساءل ما الذي يجعلني أنتظرك، ما الذي يجعلني سعيدة بانتظاري».

ركّز إقبال نظرته في أنيتا، كان هناك بريق يتألق في عينيه.

«لم أكن أعرف وقتها، لكنني أعتقد الآن أنني عرفت»

«ماذا؟» كان إقبال يفضل البقاء صامتا. لكن السؤال فرَّ من شفتيه على نحو ما من التوقع.

«إنني أستطيع أن أقول لك الكثير. أشياء كثيرة. في وحدتي كانت حاجتي عظيمة لأحدما. أنت لا تعرف ما الذي أعطيتني. الوحدة شيء فظيع».

غمامة خالطت تألق البريق في عيني إقبال وأبصرتها أنيتا، «أنت صامت قليلا، إقبال، أليس كذلك؟»

«كلا»

«فما الذي جعلني أعتقد ذلك؟»

استمر إقبال على صمته للحظة كمن يبحث عن جوابه الخاص ثم قال، «أو ربما كنت محقة يا أنيتا، لكنني شخصيا لا أعرف لِمَ أنا صامت».

«أيكون السبب أن ماقلته هو من جانب واحد؟ يمثل فقط حاجتي؟»

«أو ربما، لأنه لا يرقى إلى مستوى الحاجة. من يعرف متى تختفي حاجتك؟»

كانت ضحكة أنيتا على هذه الملاحظة أشبه بالبكاء. ثم قالت، «لن أحصل على ساجار، ومن ثم لن تختفي حاجتي أبدا، لكنك يا إقبال، هل سترحل بعيدا يوما ما، بحيث تنسى حاجتي؟».

وبدلا من الرد، أخرج إقبال رسالة من جيبه ووضعها في يد أنيتا. قرأت أنيتا الرسالة. كانت من مكتب حكومي يدعوه لإجراء مقابلة.

«هل أهنئك الآن أم لدى استلامك العمل، أم بعد إجراء المقابلة؟»

«لقد أجريت المقابلة»

اطّلعت أنيتا على الرسالة وكانت تحمل تاريخا قبل عشرين يوما. كما لاحظت أنها من حكومة آثار براديش* لم تلاحظ ذلك سلفا. كان من الواضح أنه سيغادر دلهي.

شعرت أنيتا بأنها اصطدمت بشجرة على جانب الطريق أثناء المرور في الممشى وهي منشغلة بأفكارها.

«لماذا توقفت، أنيتا؟» سألها إقبال.

«شيء يجعل رأسي يدور». أخذت أنيتا تدعك عينيها بأصابع يدها اليسرى وتطرف بعينيها تجاه الممشى من أمامها.

لم تعد أنيتا تبصر الممشى. رأت بدلا من ذلك محطة قطارهم. هناك كان خط سكة الحديد، هناك الرصيف... وواقفا هناك، يحمل حقيبة ملابسه...

مضت سنوات منذ ذلك اليوم الذي غادر ساجار فيه المدينة واليوم حين يغادر إقبال. لكن بطريقة ما، لم يعد لتلك السنوات وجود. بدا لأنيتا أنها تقف على رصيف المحطة وساجار يستقل القطار أمام عينيها.

أخذ إقبال يد أنيتا وأجلسها على المقعد.

«لست على ما يرام»

«سأكون بخير حالا»

«أأحضر لك بعض الماء؟»

وبدلا من الرد، نظرت أنيتا بغيظ وأدارت وجهها: لماذا ينتظر إقبال هناك، أخذت تتساءل، إذا كان عليه أن يذهب غدا أو بعد غد،

* آثار براديش: إحدى ولايات الهند الثمانية والعشرين.

فلِمَ لا يذهب الآن؟ لم تشأ أن تقول كل هذا، ولكن روحها الكسيرة لم تعد تتحمل أي شيء في تلك اللحظة.خرجت الكلمات من فمها عنوة «اذهب الآن. سأذهب أنا إلى البيت بعد قليل»

«أنيتا» قالها إقبال بانفعال.

«أريد أن أكون وحدي»، ردت دون أن تنظر إليه.

صمَت إقبال، لكنه لم يذهب.

«إقبال، اذهب»، أعادت أنيتا عليه بعد لحظات.

«لا أستطيع أن أتركك هكذا». قال إقبال، ونزع حذاءه كمن يقصد أنه الآن على استعداد للبقاء إلى ما شاءالله.

امتدت يدا أنيتا إلى الأمام كما لو أنها ستدفعه عنها وتجبره على الذهاب، إلا أن أنيتا أبصرت يديها ترتعشان من الغضب. أمسك إقبال يديها بكلتا يديه. «إقبال» هتفت أنيتا بانزعاج، وانتزعت يديها.

وبنهوض أنيتا كي تغادر، سقطت ورقة من حضنها على العشب. كانت تلك الرسالة الرسمية التي أعطاها إياها إقبال لقراءتها. انحنت أنيتا لتلتقط الرسالة، ودفعت بها إلى يدي إقبال، ومشت لاتلوي على شيء باتجاه واحد.

مزّق إقبال الرسالة ورمى قطعها جانبا، ثم ركض خلف أنيتا راجيا إياها، «لا تذهبي وحدك أنيتا، حلّ الظلام. سأرافقك إلى البيت»

بعثرت الريح نتف الرسالة على قدمي أنيتا. جفلت للحظة، ثم مضت في مشيها، مغلفة بأحاسيسها.

« أكان عليك أن تحتفلي بعيد ميلادي اليوم، ثم تصرفيني هكذا؟» يخاطبها وهو يمشي إلى جانبها.

«لم أصرفك، من أكون لأصرف أيا كان؟ كانت أنيتا غير راغبة في الكلام لحظتها، لكن أكرهت لتقول ذلك بسبب المنحنى الذي اتخذه الحوار.

«الحقيقة هي، أنيتا، وحتى الآن، فإن غضبك ليس بسببي وإنما بسبب ساجار. فلابد أن ساجار قد تلقّى كتابا مثل هذا وغادر المدينة». كان إقبال يتكلم وهو يتابعها جنبا إلى جنب.

شعرت أنيتا أنها ستجهش بالبكاء، هناك، على الطريق. عضّت على شفتها وقالت، «إقبال، إن كنت تفهمني إلى هذا الحد، لِمَ لاتتركني لنفسي؟... بالله عليك،لاتكلمني، أشعر بأنني منهكة الآن... أنت لا تعرف ما يعنيه ذهابك...»، وتكسّر صوتها.

«لكن، أنيتا...»

«الناس دائما يغادرون المدينة. فلا تعني مغادرتهم أي شيء. لكن في بعض الأحيان، من يستطيع أن يتنبأ ما الذي يحدث... أنا لاأعرف ما هو حادث في داخلي... فكأن ساجار وللمرة الثانية...» وعضّت أنيتا على لسانها.

كان إقبال صامتا للحظة، ثم قال بهدوء، «يستطيع ساجار أن يذهب مرة فقط، لكنه لا يستطيع أن يذهب مرة ثانية».

«ما الذي تعنيه؟» سألت مثارة بملاحظته.

«أقصد هذا: يستطيع ساجار أن يذهب، لكنني لا أستطيع». توقفا وإقبال يتحسس جبينه، فزعا بكلماته.

«ماذا تقصد؟» سألت أنيتا مرة أخرى.

«لن أذهب إلى أي مكان»

«لماذا؟»

«لأنني لا أستطيع»

تطلعت أنيتا إلى وجه إقبال في الظلام المتزايد. كانت بالكاد تتعرف على الوجه. ولعلها لم تكن لتتطلع إليه. إنها تستمع فقط إلى الصوت الذي طالما انتظرت في حياتها لسماعه. «لا أستطيع أن أذهب إلى أي مكان. لا أستطيع أن أتركك» وها هي اليوم تستمع إلى هذه الكلمات على هذه الأرض بأذنيها.

الفصــــل الثاني عشر

لم تحضر أنيتا إلى مكتبها لخمسة أيام متتالية. لم تقدم طلبا واحدا بهذه الإجازة، وإنما يوما بيوم. كل يوم تكتب فيه طلبا، تكون واثقة بأنها ستستعيد عافيتها في ذلك اليوم لتزاول عملها في الغد. لكنها في اليوم التالي تصبح أضعف من ذي قبل. وأخيرا سئمت في اليوم الخامس فأرسلت بطلب إقبال: «خذني إلى طبيب. إنني أفقد سيطرتي على نفسي»

«سمِّ الطبيب الذي تريدينه»

«أي طبيب نفساني» اقترحت أنيتا.

«لماذا؟»

«أريد أن أفهم نفسي، إقبال. قدماي لا تستقران، ومع ذلك فليس ثمة طريق أمامي»

«لكن الإنسان هو الذي يحدد طريقه... أنيتا! ما الذي يمكن للطبيب أن يفعله؟»

«لا يستطيع الطبيب أن يغيرني من الخارج، لكن ربما استطاع أن يفعل شيئا للداخل. إنني منزعجة من نفسي»

«هل حدث شيء استثنائي مؤخرا؟»

«لم يحدث ما هو استثنائي في حياتي أبدا. لكن من الممكن أن الشيء الذي حدث قد أصبح شيئا استثنائيا»

«إني أتساءل ما إذا كان زوجك قد قال شيئا ما»

«هناك الآن جدار من الصمت بينه وبيني، ولا أعتقد أن أحدا منا قادر على إزالته»

«ولكن، لابد أن ذلك صعب للغاية»

«الصمت ليس صعبا في حد ذاته. لعله يجعل الحياة تمضي بسهولة، إلا أن تفكيري لا ينحصر في نفسي. الذي يؤرقني هو أنني لم أستطع أن أعطي الرجل ما له عليّ، فأي حق لي ببيته؟... وأكثر من ذلك... لو لم أكن في طريقه، لاستطاع أن يبدأ لنفسه حياة جديدة. وعلى الرغم من كل شيء، فهو رجل طيب ومكافح. إن لم أكن قادرة على فعل شيء لنفسي، فلا يعني هذا أن أكون حجر عثرة في طريقه»

«هل تعتقدين أنه وشانتي...»

«كلا. لن أقرن بين اسم شانتي واسم رجل فاضل مثله. الذي فعلته شانتي مازال يزعجني بعض الأحيان. عندما أكون مستيقظة لا أفكر فيه أبدا. فقط في أحلامي أرى هيئتها الرهيبة. حتى في الثلاثة أيام الماضية كنت أتعرض لحلم غريب عنها. أراها أحيانا تمزج شيئا في كأس وترغمني على شربه، وأحيانا تخنقني في منامي بيديها الاثنتين.. أحيانا...»

«لكن لابد من وجود شيء ما خلف محاولة شانتي»

«ربما، لكنني لا أريد أن أفكر فيه»

«أفي مرة قررت أن تغادري هذا البيت؟»

«نعم، لكنني لم أجد طريقي إلى البيت الذي أردت أن أذهب إليه»

«هل تعرفين لِمَ لم أترك دلهي؟»

«لماذا؟»

«بسبب احتمال ضئيل لاتخاذك قرارا مشابها ثانية... ودونما داع للقول مرة أخرى إنك لم تتمكني من العثور على الطريق المؤدي إلى حيث تريدين»

لم تتفوه أنيتا بشيء، ولمدة طويلة ظلّت تحدّق في وجهه ثم قالت ببطء «إقبال، هل تدرك ما تقول؟»

«نعم»

«كلا، لا أعتقد ذلك»

«على أية حال، لقد وجدت ما أردت، وقلت ما عليَّ أن أقوله»

نظرت أنيتا إلى وجهه مرة أخرى. كان هنالك خجل وصراحة صبيانية بسيطة. كان قلبها مفعما فقالت مراعية، «إقبال، أنت أصغر مني بسنوات. ولعلك لاتعرف رغباتك حتى الآن»

«أنيتا، إن كنت تقدّرين حبي بمقياس السنين فلن تصلي إلى تقديره المناسب... لكنه ليس حبا صغيرا...» هذا الجيشان المفاجئ لحميميته جعل أنيتا تضحك،لكنه أيضا دفع بالدموع إلى عينيها. «إقبال، لو كنت في سنّك، لكنت أعطيتك الكثير جدا من الاهتمام»

«وربما لا شيء على الإطلاق... الآن، وقد أصبحت لديك الخبرة في فقدانك لساجار، تستطيعين أن تتمّني أي شيء تجدينه»

«أنت محق، إقبال. لكن ما جدوى اهتمامي بك؟ فأنا أكبر منك...»

«فقط بست سنوات»

« ست سنوات كثيرة، إقبال. أنت لم تر الدنيا بعد. إنها مليئة بالجمال والشباب... لن أستطيع أن أكافئ عنفوانك. أنا...»

وكمن يمنع صوتها بكفه، قال إقبال، «لقد وجدت ما كنت أبحث عنه في هذا العالم»

«لكن دون أن ترى العالم» كبتت ضحكتها، ثم أصبحت جادة وأضافت، «حسن، إقبال. أذهب واطلع على العالم مرة، فإن استولى على اهتمامك موضع ما، فابق هناك. وإن لم يستبقك شيء فعد إليّ. إنني سأنتظر بقدر ما تطلبه مني»

قام إقبال وذرع الغرفة من حولها مرة، ثم توقف وقال، (ها أنذا قد طفت العالم كله. لا أريد سوى أنيتا»

«إقبال!»

«أنيتا! انظري إليّ! أنت تبكين»

«أنت كنز ثمين، إقبال. لا أستطيع أن أقلد به حاشية ثوبي الرثة»

«اقبليني، أنيتا. سأرفو مزق ثوبك»

فاضت الدموع من عيني أنيتا. وبصوت مذعن، قالت، «سنوات عمري تغشاها حمرة الغسق يا إقبال، وسنواتك من شمس الظهيرة»

«إذن، دعي ظهيرتي تنساب في مسائك»

«سيتولاك الندم في بضع سنوات معدودات»

«أنيتا! ليس من حقك اتهامي بذلك. لماذا تتهمينني بجرم لم أقترفه؟»

للشمس والقمر ساعات مقدّرة. لكن أنيتا تتطلع في وجه إقبال وتعجب من مصدر الإشراق الذي تحس به يغمره.

انحنى إقبال من فوق كتفي أنيتا ليلمس بشفتيه خصلة من شعر طوّقت أذنها اليمنى وقال، «أنيتا! سأذهب الآن. سأنتظرك. سأنتظرك طوال حياتي. تستطيعين أن تأتي اليوم ـ أو غدا ـ أو بعد سنين. لكن متى حدث ذلك، فتعالي كما لو تأتين إلى بيتك أنت»

تلكأ إقبال لدقيقة على الباب، ثم عاد ودس مفتاحا في يد أنيتا وقال، «هذا مفتاح بيتك. لست بحاجة إلى أن تطرقي الباب وكأنه ليس ملكك»

الفصـــــل الثالث عشر

قبل طلوع النهار بلحظات، استيقظت أنيتا. كانت تتنفس بصعوبة. لقد مشت في أحلامها أميالا عدة، مجتازة دروبا غريبة، حتى أن قدميها تؤلمانها الآن.

لقد استذكرت أنيتا حلمها بالكامل. كان لديها صندوقان صغيران غاية في الروعة بين يديها، وفيما هي تضمهما إلى صدرها، كانت تخطو بسرعة. تعبر ممرات عديدة، بعضها عريض والبعض الآخر ضيق. وتخلف وراءها كثيرا من المساكن. أراض يباب لانهائية تمتد من أمامها. تركض إلى الأمام مسرعة وهي تتشبث بالصندوقين، وكأنها في عجلة ملحّة للوصول إلى مكان معين حيث ستسبر محتوياتهما... لقدتريثت لدقيقةعلى جانب الطريق لتتبين لون الصندوقين. أحدهما ناصع البياض، والآخر حالك السواد. من أين حصلت عليهما؟ لا تعرف أي شيء. ما الذي كان فيهما؟ لا تعرف. وإلى أين تأخذهما؟ إنها أيضا لا تعرف. إنها فقط تستمر في المشي وتجس أطراف الساري على فترات لتتأكد من أن المفتاح مربوط هناك بأمان.

ذرفت أنيتا الدموع من عينيها، لكن دونما فكرة ما إذا كانت تلك دموعا للشكوى أم للشكر. هل كانت تتشكى لخلق الطبيعة دربا آخر مضللا، يخدع خطواتها اليائسة؟ أم كانت تشكر الحياة التي أعطتها، أخيرا، الوجهة لخطواتها التي تخبطت لسنوات؟

لقد تذكرت أنيتا بوضوح الصندوقين والمفتاح الذين تمثلوا لها في الحلم. استشعرت حاشية الساري، كان المفتاح حقيقة مربوطا بطرفه. نظرت إلى يديها لكنهما كانتا فارغتين، ولا أثر لأي صندوق.

«هذا المفتاح هو الذي أعطانيه إقبال بالأمس. لذلك حلمت به»، قالت أنيتا لنفسها، «فما بال الصندوقين؟» غمغمت بهدوء. «واحد كان أبيض، والثاني أسود. واحد لون الأمل، والثاني لون اليأس...»

نهضت أنيتا من سريرها. أضاءت المصباح وأخذت في كتابة رسالة: (ساجار! لقد وصلت إلى تقاطع طرق في حياتي. هناك طرق جديدة تقود إلى منعطفات مختلفة. لا أعرف إلى أي منها أتجه. لكني سأقول لك شيئا... يبدو لي أن جميع الطرق تؤدي إليك. اليوم، دعاني داع من على أحد تلك الطرق. ليس هناك صوت من أي طريق آخر، لذلك سأتبع ذلك الطريق.

لست متدينة، إلا أنه يبدو لي أن لكل إنسان دينه ـ شيء ما يعطيه العون ـ ولذلك فله إله. يكاد الحب أن يكون عبادة، وعطاؤه يكون عونا للإنسان. لا أعرف عن الآخرين.. بيد أن هذا طريقي. ليست لذاتي قصد إلا إليك. إن كان وجودك مجسدا كالإنسان، إلا أنك بالنسبة لي بغير شبيه في الوجود... ولذا، وأنَّى ذهبت، فاعلم إنما للبحث عنك، سواء أكان ذلك على درب الحياة أم على درب الفناء. وأنا أعرف ياساجار أنك ستقول بأنني مسؤولة عن فقداني إياك. نعم، ساجار، ذلك ما اقترفت يداي. واليوم وقد نأيت عنك أميالا، لأتساءل: إن لم تكن «نعم» لإقبال بكاملها، رد فعل لـ «لا» التي تفوهت بها لك في عجلة خاطفة. قد يكون ذلك كذلك. ولربما كان هو ما أدفعه الآن بسبب تلك اللحظة الواحدة. ربما كنت الآن غير راغبة في فقدان إقبال، لتعلمي درسا من فقداني إياك ذات مرة. ولعلي غير قادرة على رفض أي شيء له لشعوري بذنب رفضي لك ذات يوم.

لعل من الصعوبة على أي فرد في هذه الدنيا أن يتفهم أني أحبك وأحب إقبال كذلك. لكنني أفهمها على هذا النحو. فحبي لك كالسماء التي لا يستطيع أحد إنكار وجودها، ولكي يحيا الإنسان تحتها، يتحتم عليه بناء بيت من طين وآجر. وحبي لإقبال مثل ذلك البيت الذي أحتاج إلى حماية جدرانه. لا أحد يستطيع أن ينكر أن البيت ضروري، ولا أن ينكر أن السماء تشمله كله. وداخل البيت أو خارجه، فالإنسان يبقى تحت السماء. وأنا أكتب لك، ساجار، أعرف أنني لن أبعث لك

بهذه الرسالة، كما أنك لن تقرأها. لكنني مع ذلك أكتب. لقد قلت لك توًّا: إنك مثل كل البشر مجسد، لكنك أيضا، بالنسبة لي غير ذلك، ولا شيء يشبهك. عندما يصلّي الإنسان، فلاعتقاد بأنه في حضرة كينونة في الماوراء، تسمع الصلاة... ورسالتي نداء، ومثلما أكتب، أشعر بحضورك وقراءتك إياها.

المخلصة أنيتا

بتاريخ: الثامن من مايو

الوقت: قبل السحر بساعة)

كانت أنيتا تعلم أنها لن ترسل هذه الرسالة لساجار. لكنها وقعتها وأرّختها ووقتتها. وبعد أن عنونت مظروفها، جعلتها تلك الرسالة تضحك، كما جعلتها تبكي.

وحدك بلا عنوان. خاطبته بذلك، وعضّت على شفتها ومزقت الرسالة إلى قطع.

ثم كتبت رسالة قصيرة إلى طفلها، وأخرى أقصر إلى زوجها. في رسالة طفلها، كتبت: أنها ستنتظره دائما، أينما ذهبت، سوف تنتظرة ليكبر، ويقف على قدميه. وفي الرسالة إلى زوجها، كتبت «ليس لدي مثقال ذرة من الشكوى إزاءك. إنني متألمة بالأحرى لعدم قدرتي على إدراك قيمة رجل نبيل مثلك.إن أردت،تستطيع أن تجرّني إليك بأصفاد القانون، لكن ذلك سيكون مجرد جرّ، ليس إلا. وسأعتبرها منك منةً إن تركتني أذهب، حيث أكون، مثلما أكون. وإن أرسلت طفلي إليّ بين فترة وأخرى...». ملأت الدموع عينيها وهي تكتب هذه الرسالة، ولم تستطع أن تكمل. تركت الرسالة الناقصةعلى الطاولة.

كان النهار على وشك الطلوع، فكتبت طلبا لإجازة من عملها، ثم هيَّأت نفسها بهدوء.

بصعود أنيتا درجات بيت إقبال، كانت تعبث بعصبية بالمفتاح المربوط بطرف ملابسها، تذكرت حلم البارحة، وصندوقي الحلم. نظرت أنيتا إلى يديها الفارغتين: «ليس هناك أي صناديق في يدي، لكنهما تركا آثارا من لونيهما». وفيما هي تفتح قفل الباب، كانت سعيدة، وكانت أيضا حزينة.

الفصــــل الرابع عشر

أول أشعة للشمس أضاءت السماء وأيقظت أنيتا. تردد صدى أزيز إدراك في وعيها الخامل حالما انقلبت فأبصرت إقبال راقدا إلى جانبها.

رأت أنيتا في وجهه كل الصفات التي اشتهرت عن الأمراء، شفتان بهما عطش، جبين موسوم بالسلطة، وبنية كتب عليها البهاء من كل جانب. في تلك اللحظة،تخايل إقبال في نومه لأنيتا كالأمير الفاتن من تلك القصة، والذي ضل طريقه في الأدغال جائعا ومنهكا، فطعم من ثمار شجرة بريّة، وشرب من نبع الغابة، ثم خرّ نائما تحت ظل شجرة.

تنفست أنيتا بعمق خلف عنقه وأجرت أصابعها برفق خلال شعره الوثير.

«نيتي...» طرف إقبال وفتح عينيه ثم وضع أصابعها على شفتيه. «ألم تكوني خائفة في الليل؟» تساءل فيما هو يقبل يديها.

«قليلا»، ضحكت ثم فسّرت، «إنها كما لو كان، وحيثما أذهب،تعبس في وجهي قوانين المجتمع - وكذلك الناس...»

«وبعد؟»

«لا شيء. أنت نمت، وأنا لم أستطع»

«كان عليك أن توقظيني»

«عندما كنت خائفة، احتضنت يدك وأنت نائم. ثم غفوت أنا كذلك»

«كيف تشعرين الآن؟»

«منذ مدة طويلة، قرأت جبران خليل جبران. لكنني اليوم أشعر

أنني فهمت معنى الكلمات التي قرأتها منذ سنين»

«حقا؟»

«كتب جبران: إن روحي مثقلة بنضوج ثمارها، فهلا قام جائع بالمخاطرة والإفطار عن صيامه بمشاطرتي لهذه الثمار والتخفيف من أعباء روحي»

«وشعرت بالشيء نفسه، أنيتا؟»

«كنت دائما في انتظار أحد ما، تماما على مثاله. ثم وجدتك. واليوم، أستطيع أن أشعر بأنك كنت جائعاً جدا، حقيقة. أنا سعيدةجدا هذا اليوم، جد سعيدة»

«اعتدت أن أظن بأنني أعرف جوعي جيدا. لكن فراغا بدأ يمتلئ داخلي عندما التقيتك، والآن أعرف أنني لم أكن قد وعيت الجوع الذي في داخلي»

«إقبال، هل أنت سعيد جدا؟»

«جدا»

«أأطلب منك شيئا؟»

«نعم»

«لا تتخلى عني أبدا»

«لا أستطيع أن أتخلى عنك، أبدا، نيتي. لقد وجدتك بصعوبة.لكن هناك شيئا أود أن أطلبه منك»

«ماذا؟»

«ألا تشعرين أبدا بالندم كونك كابدت الكثير من المشاكل بالخروج على قيود المجتمع، ومع ذلك لم تحصلي على ساجار؟»

«لو كان في حاجة إليّ، لما تركني على الطريق وحدي. الآن، بالنسبة لي، هو شخص ليس لي عليه مطلب، ولا عليه عتاب. مازلت أحبه ،لكن ليس بالطريقة التي تحب بها المرأة رجلا، وإنما، بالأحرى، الطريقة التي يحب بها شخص ذاتا مطلقة... هل تفهمني إقبال؟»

«نعم، نيتي!»

«أريد أن أحيا حياة واحدة، إقبال، من الداخل والخارج. لقد تخطيت الأعراف لأنني عشت حياة واحدة في داخلي، وحياة أخرى في الخارج. ما فكرت به وعيناي مغمضتان كان مختلفا عما رأيته وعيناي مفتوحتان. ليس من السهل أن نمزق الشبكة التي ينسجها المجتمع. لقد أمضيت سنوات فقط للتفكير في ذلك. والآن وقد مضيت وفعلت كي لا أضطر أن أكذب على أحد، ولا على نفسي»

«هيا أنيتا، قولي كل ما عندك»

«أردت فقط أن أقول، في الليالي التي أبديت فيها استعدادي لك،لا أريد حتى أن أحلم بحلم لا يكون عنك»

لم يقل إقبال شيئا، وإنما نهض وقبّل أنيتا على جبينها.

«كان علّي أن أفعل هذا ليس من أجلك، إقبال، ولكن من أجلي أنا. أردت أن أنقذ روحي من ندوب البهتان»

«ربما لبعض الوقت، لن أكون قادرا على توفير الراحة لك، نيتي. لقد اعتدت دائما على حياة مرفهة. كما لم تعتادي على نوعية المهمات كالتي قمت بها البارحة»

«البارحة؟»

«نعم، مسح الغرفة، الطبخ وغسل الأواني، وكل ذلك بمفردك...»

«لكنك لم تعلق على أنني قدمت جسدي للرجل ذاته الذي قدمت له الوجبة. ليس هناك راحة أعظم بالنسبة لامرأة سوى أن لا تتاقض أحلامها لسانها»

«نيتي، سوف أكسب كثيرا من المال، وسأشتري لك كل متع الدنيا»

«ليس لي رغبة لمتع الدنيا، إقبال! فقط لو...»

«نعم، ما الذي أردت قوله، أنيتا؟»

«لو فقط أحظى بطفلي معي، رشمي!»

«سوف يكبر ويأتي إلينا»

«هل سيفعل؟» وملأت الدموع عينيها. «هل سيفعل حقا؟»

«طبعا، سيفعل»

«سأبقى إلى جانبك إلى الأبد وأنتظره. سننتظره معا»

«نعم، نيتي! كلانا معا»

الفصـــــل الخامس عشر

لم يكن هناك ما يستحق أن يُشترى. أشياء صغيرة، ولكن عديدة. مشابك شعر، أسورة للساعات، خيوط أحذية، أزرة قمصان، قبعة لإبريق الشاي... وضعت أنيتا هذه الأشياء في كيس، ثم أخذت تشير لإقبال على ربطة عنق من الحرير الطبيعي معلقة في المحل عندما ناداها أحدهم من الخلف.

(أوه، بالي؟) استدارت أنيتا وتساءلت.

«ظننت أنني تعرفت عليك عن بعد. ناديتك خائفا أن تتكشفي عن شخص آخر». قال ذلك رام بالي، فيما هو يتقدم إليهما.

ضحكت أنيتا وقالت، «أنت شاب غريب يا بالي. حتى أقرب معارفي يمرون بي الآن كمن لم يرني من قبل... حتى أكثر الحميمين منهم... ومنذ دقيقة فقط كانت واحدة من أقرب أقربائي تمر من هنا، ثم بدأت تحدق في ذلك المبنى كما لو أرات تعداد كل آجُرَّة فيه...»

«تلك هي المسألة، أنيتا. لست من أقربائك ولا من معارفك الحميمين جدا...» وضحك بالي، ثم أخذ يتطلع من حوله محاولا على الأرجح أن يكتشف من يكون إقبال من بين الموجودين.

«هذا إقبال...» ألمحت أنيتا.

«سمعت عنه لكنني لم أره قبل الآن». صافح بالي إقبال وأضاف ضاحكا «شخص محظوظ»

كان وقت إغلاق المحلات. تخلّى إقبال عن فكرة شراء الربطة وخرج من المحل.

«أنيتا، إن كان لديك الوقت يوما ما...»

«اليوم هو آخر يوم لنا في مدينتك، بالي»

«ولِمَ مدينتي؟ إنها مدينتك أيضا، مدينتك أنت بالذات»

«كلا، بالي. هذه المدينة تنظر لي الآن كغريبة»

«إنها تهيؤاتك، أنيتا»

«أبدا، بالي»

«الأصدقاء هم أبدا أصدقاء»

«تلك حقيقة، بالي،لكن، كم هنالك من أولئك الأصدقاء في هذا العالم؟»

«حتى الصديق الواحد كفاية، أنيتا... لكن إن لم يكن لديك مانع، أنيتا، وأنت يا إقبال... هل أنتما في غاية العجلة للمغادرة الآن؟»

«علينا أن نذهب ونأكل أولا، ثم نهيئ أمتعتنا»

«هناك الليل كله للأمتعة. وسأذهب معكم للمساعدة. تفضلا للعشاء معي...، ماذا تقول إقبال؟»

وافق إقبال، وأخذهما بالي إلى منزله. كان بيتا صغيرا، لكن، لم يكن في الجوار بيوت أكبر، لذا يستطيع الإنسان أن يرى جانبا عريضا من السماء بجلوسه في الفناء. في الخارج سمقت شجرة نيم* فتدلت أغصان كثيرة منها على الجدار وداخل الحوش. وضع بالي بعض الكراسي تحت عريش الأغصان، ثم أطفأ الأضواء في الحوش وأضاء قليلا من الشموع في الركن.

«يا لها من ليلة جميلة...»

«لنجعل المدينة تبدو وكأنها مدينتك...»

---

* شجرة هندية يستخرج منها الصمغ.

وضع بالي ثلاثة كؤوس على الطاولة ووضع بعض مكعبات الثلج في كل منها قائلا «نحتفل الليلة بحيث تغادران المدينة دونما تذمر منها»

«ما أطيبك يا بالي!»

في ضوء الشموع الخافتة، تطلع بالي مرة إلى أنيتا ومرة إلى وجه إقبال.

«علام تنظر؟» ضحكت أنيتا.

«أي منكما الأكثر سعادة؟»

«أنا بالطبع،لم أكد أصدق أبدا أن تكون أنيتا لي يوما ما» تطوع إقبال بالإجابة.

«في الحقيقة، أنا الأكثر سعادة. إنه صغير، وفاتن مثل أمير. يمكن أن يحظى بأي شيء في العالم...أنا...» ولم تكمل أنيتا. ربما لتذكرها النهاية المأساوية لحبها الأول، الموضوع الذي أفقدها الكلام.

«الحياة غريبة جدا...» قال بالي، «نسبر آفاقها فلا نجد اللون الذي نريد. ثم بعد ذلك نعثر على واحد يفوق جماله ذلك الذي بحثنا عنه». ذاك كان رده على ملاحظة أنيتا، ولربما كان بالي يفكر أيضا بهذه الليلة... كان صديق ساجار. من أجل ساجار قابل أنيتا، ومن أجل أنيتا قابل إقبال.

أحضر خادم بالي بعض الأشياء من الخارج إضافة إلى ما هو متوفر في البيت. وبدأ يعد الطاولة.

دخل بالي إلى الغرفة وأدار جهاز الاسطوانات على هذه الأغنية:

اقتطفت ناريلة* من السماء

فصار لب الذكريات الناصع في يدي

---

* جوزة الهند.

فمن يترشف الشراب من جوفها؟

تطلعت أنيتا إلى وجه إقبال في ضوء الشموع الراعش وهمست، «في قبضتي لب القمرالناصع. فلنر إلى أي حد أنت جائع.»

«سَأَلْتَهِم كل ما في القمر من لب ولن أشبع جوعي». رد عليها إقبال بهمس، وتناول يديها بيديه.

تمعنت أنيتا في شفتي إقبال الحمراوين الريانتين وتذكرت شيئا تحدث عنه مرة: «عندما ولدت أصبحت أمي مريضة ولم تستطع إرضاعي فأخذتني جدتي في حضنها وبطريقة أو بأخرى در الحليب من صدرها.. وتأملت أنيتا، «كيف يمكن لشفتي إقبال الرائعتين الناعمتين الحمراوين أن تلمسا ثدي جدته الجاف وتفشلان في جعله يدر بعض القطرات من الحليب..» ثم فكرت، «اعتدت دائما على التفكير في أنه لا يوجد رجل غير ساجار يمكنه أن يدخل حياتي، لكن شفتي إقبال لامستا شفتي الجافتين وملأتهما بالحب.»

جاء القمر عبر السور. لقد سمع صوت الموسيقى فاندفع فوق السور، وسمع أصواتا تتكلم فانحنى فوق الفناء مثل أغصان شجرة النيم، تجاه ما كان يجري.

الفصـــــل السادس عشر

مدينة جديدة، بيت جديد، ومهمات منزلية جديدة. يقوم إقبال وأنيتا بترتيب الغرفة بطريقة، فلا يكون الترتيب مرضيا، فيعيدا ترتيبها بصورة جديدة. كانت عناصر الأثاث تُعدّ على الأصابع، لذا كان بإمكانهما تغييرها كما يرغبان، إلا أنها لا تفي بكل المتطلبات، أما ذلك الذي يناسب احتياجاتهما، فلا يعجب إقبال.

«هيا نيتي، لنذهب ونشتري أكوابا جديدة». كان ذلك في جلسة على الشاي.

«لكن لدينا جميع الأكواب التي تحتاجها»

«سئمتها... وعندما أسأم شيئا، لا أستطيع احتماله لمجرد صلاحيته، ولو للحظة»

تطلعت أنيتا إليه بانتباهة حادة، ثم ضحكت وقالت، «سنشتري أكوابا جديدة هذا المساء، لكنك تحتفظ بهذا النوع من الاستياء الملكي للأكواب والصحون والكراسي فقط، أليس كذلك؟ للأشياء... أقصد، وليس للناس،كما أتمنى.»

وضحك إقبال أيضا قائلا، «لست أدري نيتي ما الذي يجري في داخلي. في البداية يصعب عليّ تقبل أي شيء، لكن متى ما أعجبني، أفقد السيطرة على نفسي وأفقد الصبر... فلابد من الحصول عليه، وما أن أمتلكه حتى أملّه بعد أيام قليلة.»

«لكن سؤالي كان: هل يحدث هذا مع الأشياء المادية فقط، أم يسري على الأحياء أيضا؟»

«حسن، تجربتي حتى هذا التاريخ تتصل فقط بطاولة أو ستائر أو فراش أو راديو، أو لنقل بعملي... أذكر عندما كنت تلميذا، كنت مغرما بفنان معين. كنت أنظر إلى أعماله وأتمنى لو وظفني فقط لأغسل فُرَشه»

«ثم؟»

«وبعد أن أنهيت دراستي، حدث فعلا أن ضمني الرجل إلى عمله، فأمضيت بالكاد ثلاثة أشهر في العمل قبل أن أتخم. أخذت أفكر حينها أن بإمكاني أن أؤسس مرسما خاصا بي، وأبدع أشياء أفضل منه»

«ثم ماذا، إقبال؟»

«تركت العمل وحصلت على آخر بزيادة خمسين بالمئة للراتب، لكن هناك أيضا بقيت أربعة أشهرفقط.كان ذلك في لاهور. ففكرت أنها مدينة صغيرةجدا. وأعقب ذلك تقسيم البلاد. كانت دلهي تجتذبني حتى قبل ذلك التاريخ، ولذا جئت إلى دلهي»

«ثم؟»

«واجهت أياما صعبة. لا مكان للسكن، وقليل القليل للقوت»

«لم تحصل على عمل؟»

«حصلت على واحد، لكنني استقلت منه بعد خمسة أشهر. شعرت أن المرتب لايتكافأ مع مستوى عملي. ما الذي تقولين، نيتي؟ أنا عنيد جدا، أليس كذلك؟ لكن، سأقول لك شيئا واحدا، عندما يقنع الإنسان بأي شيء، فلا يمكنه التطور»

«نعم، تلك حقيقة»

«في مدرسة الفنون، كذلك، اعتدت أن أصطدم مع مدرّسي. كان يعلّمني أسلوبه، وما كنت لأتبناه. فلو فعلت، لأصبحت نسخة منه للأبد. أليس ذلك صحيحا؟»

«نعم، هو كذلك»

«أردت أن أعمل بالفُرش، وهكذا بدأت أرسم مناظر لإعلانات السينما»

«ثم؟»

«هناك أيضا كان شعوري بما يتطلبه العمل من مجهود يفوق عائده. كنت أراقب عمل فنان من بومبي جعلني أفرط في التفاؤل، فتركت دلهي وذهبت إلى بومبي، وعملت معه لثلاثة أشهر ثم تلاشت قوة السحر»

«ثم؟»

«بدأت العمل مستقلا. أمضي على قدمي حيثما عملت. بعدها كان هناك وكالة إعلانات، رأوا أعمالي، وعينت مسؤولا عن مكتبها»

«وبعد؟»

«وبطريقة أو بأخرى بقيت معها لمدة سنتين. ومرة أخرى، سئمت من قيود العمل، فتركت بومبي إلى دلهي»

«ثم؟»

«بعد ذلك أنت تعرفين. أعددت مرسمي الخاص واشتغلت كما يحلو لي»

«لكنك لم تجب على سؤالي بعد. كل ذلك كان بخصوص الأشياء، المدن، الوظائف، الأشياء الجامدة»

«لم يحز على إعجابي كائن حي قبل أن تبرزي للعيان»، قال إقبال ذلك ضاحكا.

«إذن،فليكن الله في عون هذا الكائن!» هتفت أنيتا ضاحكة بدورها.

ذلك المساء، ذهب إقبال وأنيتا إلى سوق الفخاريات في المدينة

ونقّبا كل محل فيه، كبير وصغير. تفحصا المواد الرخيصة والمواد الثمينة جدا. لم يكن الثمن هو مايعتدّ به. ما كان يبحث عنه إقبال في الفخاريات، إنما هو الجِدّة في الشكل، الجدة في اللون، والجِدّة فوق كل شيء.

وأخيرا، في أحد المحلات، غاص إقبال ووجد بعض الأكواب التكعيبية الشكل. أمسكت أنيتا أحدها بإعجاب وقالت، «لابد من الاعتراف، إقبال، إن اختيارك رائع!»

«أليس كذلك؟»

«نعم...»

«واختياري لهذه؟» وأشار إلى أنيتا.

«في هذا، ربما كان اختياري أفضل من اختيارك». قالت أنيتا ذلك وهي تربت على كتفه.

«وكيف ذلك؟»

«قد تندم على اختيارك يوما، أما أنا فلا...»

«يبدو أنك خائفة مما قلته هذا الصباح»

«كلا»

لقد قالت أنيتا «كلا». في تلك اللحظة، ربما، اعتقدت أنها الإجابة الصادقة. لكن بالعودة إلى البيت، بعدالعشاء، وبعد الشاي بتلك الأكواب المقتناة حديثا، وعندما ذهبت إلى الفراش، كانت أنيتا تشعر في أعمق أعماقها بشيء من الخوف يتوارى في مكان ما في داخلها، كانت مرتعبة.

تفحصت أنيتا تفكيرها عن قرب. يومها هذا، لم يكن خائفا: فقد وقف صامتا ومتآلفا. لكن، ليس بعيداً، كان غدها يقف مرتجفا من القلق.

الفصـــل السابع عشر

الغبار يبتلع قضمات من الغسق الضارب ألقه إلى الحمرة. على شاطئ البحر، غاصت قدما إقبال عميقا في الرمال الرطبة تحت ثقله الطبيعي. كان يراقب الأمواج بانتباه لمدة غير قصيرة، ولعله كان يقارنها باضطراب أفكاره.

«إقبال!» كانت أنيتا تقف بقربه وتمس ساعده برفق.

«نعم، نيتي!»

«ألن نذهب بعد؟»

«إلى أين؟»

«البيت»، كانت أنيتا توشك أن تقولها، ولم تفعل. «ياله من سؤال!» تفكرت أنيتا. «بالتأكيد، إقبال يعرف ذلك! فإلى أين سنذهب، إن لم يكن للبيت؟.. كم هو غريب عقل الإنسان؟!»

تقدم إقبال برقة إلى أنيتا الصامتة. في تنامي الظلام السريع، تطلعت أنيتا إلى وجهه. كانت عيناه سعيدتين، لكن في تلك العينين السعيدتين كانت هناك سحابة، سحابة يحتمل أن تتكشف في أية لحظة وتملأهما حتى تترعا.

عندما لا تجد الشفاه كلمات لتسأل أو تخبر عما في عقل امرئ ما، تعمد اليدان إلى لغتهما الخاصة، فالحركة والإيماءة مفردات تستطيع الأرواح العاشقة بواسطتها أن تتواصل كثيرا. لجأت أنيتا إلى هذه اللغة الصامتة وعانقت يدي إقبال بكلتا يديها.

«حرارتك مرتفعة، إقبال!» شعرت أولا بكفه، ثم جسّت ذراعيه فجبهته.

«ربما...» أجاب إقبال.

لاهو ولا أنيتا كانا بحاجة لقول المزيد، واتجها إلى البيت.

«لن آكل أي شيء. فقط جهزي فراشي، انني أتألم من كل جانب» أخبرها إقبال بذلك لدى وصولهما إلى البيت.

«ولا حتى كوبا من الشاي؟» سألت إقبال فيما هي تنشر الفراش بسرعة.

بينما كان إقبال يرتدي ملابس النوم،كانت أنيتا تعد الشاي، وحين أحضرت له كوبا، سألت، «أأستدعي طبيبا؟»

«ليس الآن. غدا صباحا ربما. وقد أكون على ما يرام»

أخذت أنيتا تدلك جبين إقبال برفق حتى غلبه النوم.

استلقت أنيتا على فراشها، لكن الخواطر ما فتئت تتوالى، «إقبال حزين جدا»

«ربما كان قلقا بشأن المال!»

«ربما كان والده قد كتب له رسالة مريرة!»

وفكرت أنيتا في أن توقظه وتشاركه أحزانه.

«الحمَّى ليست سوى ثقل همومه يتداعى له جسده». انقلبت أنيتا في فراشها ووضعت يدها على كتفه لإيقاظه.

«إن أزعجته مرة، فقدلا يتمكن من العودة إلى النوم...» فكّرت، وسحبت يدها من على كتفه.

«ستتراجع الحمّى الليلة أثناء نومه، وغدا صباحا سأتحدث معه وأنا سعيدة...» عزّت نفسها.

ومع ذلك لم تستطع أن تكبح جماح نفسها قبل النوم. نهضت وطبعت شفتيها على عنق إقبال بقوة وهو نائم، كما لو أنها تمتص كل أحزانه بشفتيها.

في الصباح نهضت أنيتا مبكرا ووضعت يدها على جبهة إقبال. كانت أكثر حرارة من البارحة. تولاها الذعر فاستدعت الطبيب.

فحص الطبيب إقبال بالكامل ودرس الأعراض وقال، «من الصعب أن أقول أي شيء عن الحمّى الآن، سأصف دواءً خفيفا. لا تعطيه أي شيء عسير الهضم. فقط حليب وماءشعير وعصير فاكهة. خذي حرارته كل أربع ساعات. سنتعرّف غدا على شيء ما أو بعد غد»

قامت أنيتا بما أمر به الطبيب. ولمجرد الاطمئنان، سألت إقبال في الظهيرة، «هل تلقيت أي شيء من والدك؟»

«كلا»

«أي رسالة من سادجيف؟»

«كلا، لا شيء على الإطلاق»

أصبحت أنيتا قلقة بعض الشيء. ولمزيد من الاطمئنان، سألته مرة أخرى، «إقبال، لست خائفا من أية مشاكل قانونية مع سادجيف، أليس كذلك؟»

«أعتقد أن سادجيف كرجل أفضل كثيرا من معظم الناس. فلابد أنه يفكر، إن لم تستطع الفوز بقلب إنسان، فلا فائدة من ملاحقة الجسد. وسيبقى في غاية الهدوء»

لقد أعطت إجابة إقبال لأنيتا اطمئنانا أكثر من جهة، لكنها أمدّت أفكارها أيضا بأسباب الشرود لما هو أبعد. «إذن علام كل هذا الحزن

لدى إقبال؟» لكنها لم تعمد إلى مزيد من الأسئلة. كانت خائفة من مضاعفة الكلام الكثير لحرارته.

استمرت الحمّى هكذا لليوم الثاني، فاليوم الثالث، وفي اليوم الرابع قال الطبيب، «يبدو أنه التيفوئيد»

ذات يوم كانت أنيتا تقوم بتدليك إقبال بفوطة مغموسة بماء ساخن عندما أمسك بيدها فجأة وقال بصوت مرتعش، «نيتي، لِمَ تجشمين نفسك كل هذا العناء من أجلي؟»

«العناء؟» سألته أنيتا وقبّلت ظهره العاري.

«كفّي، فرائحتي كريهة من الحمّى»

«كلا»

«بدلا من أن أوفر لك الراحة، أصبحت مريضا. تمضين الليالي في رعايتي... وتطوفين كل الأمكنة صباحا.. الذهاب للطبيب، تسخين الحليب، غليان الماء، تغيير الملابس،...»

«لكن إقبال! ألا ترى في كل ذلك امتيازا لي شخصيا من دون الأخريات؟»

«لِمَ تحبيني بهذا القدر؟» قال ذلك إقبال وكلماته مبللة بالدموع. ألبست أنيتا إقبال، ثم غيرت مفارش سريره وقالت، «عندما تحب المرأة بكل طاقتها، فإنها لا تبقي على شيء»

«والرجال؟»

«كيف لي أن أعرف؟ أنت الذي تقول!» ظل إقبال صامتا للحظة. بعدها، أخذ يد أنيتا وقال، «لِمَ لم تكن طبيعة الرجل كطبيعة المرأة؟»

رنت أنيتا إلى عينيه. ثم، وهي تنحني عليه، سألته، «ألا تحبني، إقبال؟»

أغمض إقبال عينيه. سقطت بضع قطرات من دموعه ودارت حول أذنه.

لم تقو أنيتا على البقاء واقفة. تشبثت بالسرير وتهاوت حتى قدميها. أراحت رأسها على مخدة إقبال وقالت، «لا ينبغي أن يكون بيننا كلام يجافي الحقيقة، إقبال! لقد أتيت إليك في بحث عن الحقيقة. قل لي الحقيقة بكاملها».

«لم أكذب عليك أبدا، نيتا. كامرأة، أنت من النوع الذي لا يستطيع أن يكذب عليها أحد». ووضع إقبال يده المحمومة على رأسها.

«ثم؟»

«هل ستفهمين ما أقول؟ إن كان هناك أحد في هذا العالم يستطيع حقا أن يفهمني، فهو أنت»

«فضع ثقتك في قدرتي على الفهم!»

تنهد إقبال وقال «نيتي. إنها لحقيقة أنني أحبك، لكن، وهذه حقيقة أيضا، إنني لا أحبك بالكامل»

رفعت أنيتا رأسها عن المخدة، لكن رأسها دار وسقط بالرغم منها على المخدة.

«لم أحلم أبدا بأني سأحظى بك يوما، فقد بدا ذلك لي شيئا مهولا. أما وقد أصبحت لي فعلا...» وتلعثم صوت إقبال.

«فكيف بدا ذلك؟» هتفت أنيتا. لم يكن ثمة غضب في صوتها. لم

يعد الآن أكثر من صوت متعب جدا.

«الآن أغمض عيني وأفكر في شخص آخر في خيالي»

«من تكون؟»

«إنها فتاة لم أرها إلى الآن. لا أعرف ما إذا كان هناك مثلها في العالم، إلا أنها فتاة صغيرة وجميلة إلى أبعد حد في خيالي»

«قلت لك ذلك، إقبال. كنت أحذرك من أنني أكبر منك، ولن يجد شبابك فيَّ كفايته»

«ربما كنت على حق، لكنني ما كنت قادرا على رؤية وجهة نظرك في ذلك الوقت»

«لكن، ما الذي يجعلك حزينا، إقبال؟ لديك أعوام وأعوام من أمامك. وأنت لابد وأن تحصل على رغباتك العاطفية»

«لكن ماذا بشأنك»

«أنا؟ لا شيء؟»

«لقد حرمتك من بيتك، وعملك، وطفلك...»

«لم يكن لي شيء في هذه الدنيا عدا طفلي. الطفل لايزال حيا، وإذا احتاجني فسأكون هناك»

«ألست غاضبة مني؟»

«كلا»

«لكنني غاضب على نفسي»

«لذلك كان لديك حمّى»

تبدّت لدى أنيتا حيوية كامنة. أزاحت كل الأدوية من جانب سرير إقبال إلى ركن واحد، ثم اغتسلت وبدأت بتغيير ملابسها.

«نيتي!» ناداها إقبال.

«نعم»

«إلى أين تذهبين؟»

«لآتي بطبيب أفضل»

«لماذا؟»

«لا أظن أن لديك تيفوئيد. هذا الطبيب يعطيك الدواء الخطأ»

قال الطبيب الجديد بثقة بعد فحص إقبال: إنها لم تكن حمّى تيفوئيد. أجرى كذلك فحصا للدم.

«إذا ما هي يا دكتور؟» سألت أنيتا.

«ربما كانت غدة متضخمة في مكان ما»

«وهل يمكن أن يؤدي القلق الكثير إلى مثل هذا التضخم؟»

«نعم»

تراجعت الحمّى في اليوم التالي مع الوصفة الجديدة، واختفت في اليوم الثالث.

أصبح إقبال ضعيفا جدا. كان كل من الطبيب وأنيتا يأملان أن

يتلاشى الضعف في أيام قليلة. وصف الطبيب بعض المقويات أيضا، لكن صحة إقبال لم تتحسن حتى مع زوال الحمّى.

لم تتحدث أنيتا مع إقبال، ولأيام عدة، عن أي شيء عدا صحته. لكن، مع رؤيتها له على هذه الحال، حزينا وضعيفا كما كان، قالت له، «إقبال، لقد قام الطبيب بما هو في استطاعته. لا طبيب يستطيع أن يفعل أكثر. الآن عليك وحدك أن تحسّن من صحتك»

«ذلك ما أعتقده أيضا، نيتي، لكن...»

«نعم، قل أي شيء في بالك»

«بالي ينوء بحمل ثقيل من الذنب...»

«وكيف يمكن التغلب عليه؟»

«لا أشعر به عندما أكون وحدي، ويزداد عندما أتطلع إليك»

«إذن، ما الذي تقترحه؟»

«ما الذي بإمكاني قوله؟ لست في وضع لأقول أي شيء...» لم تقل أنيتا أي شيء. «من يعرف ما هو مخبأ لي؟ ربما كُتب عليّ أن أتخبط من فتاة صغيرة إلى أخرى. سأفقدك ولن أجد من لها مثل قلبك. بعدها سأبحث عنك عبثا. ربما لن أحظى بالسلام... لا معك ولا مع أحد غيرك». وظلّت أنيتا صامتة.

«لكن إلى أين ستذهبين، نيتي؟»

«أي مكان...»

«إن لم يكن لديك مكان تذهبين إليه، فابقي هنا»

«كلا، إقبال. لا فائدةمن ذلك»

«لماذا؟»

«لا أستطيع أن أعيش معك وأنت في غير حاجة إلي. لا أستطيع العيش في مكان غير مرغوبة فيه»

«وإذن؟»

«ذاك كل ما أعرفه، ولا غير»

«إذهبي إلى ساجار، فقد يكون أفضل مني»

كان صبر أنيتا، الذي احتفظ طويلا بويلات قلبها تحت سيطرته مثل سد على نهر، قد انهار في لحظة. راحت أنيتا تغرق وتطفو ثانية على تلك المياه الجارفة، متفوهة بصرخة أليمة واحدة «بالله عليك، إقبال، دعني وشأني. سأذهب. سأذهب إلى مكان ما، أي مكان».

الفصل الثامن عشر

نزلت أنيتا من القطار إلى المدينة حيث كان طفلها. الآلاف من المنازل نبتت على رقعة المدينة كالشعر على البشرة. أوجست أنيتا عيونا لهذه المدينة، خاصة بها، تتطلع إليها بحذر، ولسانا يخاطبها بكلمات مرة. غير أن أنيتا ما كانت لتعير الغضب من عيون المدينة أي انتباه، ولا حتى لسانها اللاسع. كان همها فقط أن تتحسس نبض المدينة الذي يبقي عليها حية. ذلك النبض هو طفل أنيتا. فإن كان ذلك النبض يخفق، فالمدينة حية، وإن كانت المدينة حية، فلا يهم كثيرا إن تحدثت بلسان مر، أو تطلعت بعيون غاضبة.

وواحد بعد الآخر طافت أنيتا بكل أسماء الأشخاص الذين تعرفهم في المدينة. لكن أحدا منها لم يؤثر على حركة خطواتها، كما لم تشعر بميل في الذهاب إلى فندق. لم ترد أنيتا أن ترخي لتأملاتها حبلا طويلا، ذلك أنها تعرف، لو أن قطار تفكيرها احتشد بالزخم مرة، فستفقد السيطرة عليه وسيخرج عن سكته. كانت أنيتا على وعي من مستنقع القنوط داخلها. كانت عن عمد تقاوم المضي في ذلك الاتجاه، وتعرف أنها بالذات ليست بالمرأة الشجاعة، فقد كانت خائفة من الرفض. لذلك، فقد كانت تنظر في الاتجاه الآخر.

اتخذت أنيتا وجهتها إلى بيت رام بالي، لاعن قناعة أن باستطاعتها الذهاب واللجوء هناك لبضعة أيام كحق مكتسب، وإنما لاعتبارين استقرا في بالها. الأول كون بالي يعرف ساجار مثلما يعرف إقبال، ولذلك لن تكون مضطرة لأن تحكي كل شيء من البداية... والثاني لأن أم بالي تعيش في قريتهم ولن تضايقها أية امرأة بالسؤال في بيته.

تدرك أنيتا أن كل امرأة في مجتمعها تعرف كيف تختنق حتى الموت في تقاليد المجتمع، ولكنها لا تعرف كيف تحطّم بابا أو نافذة لتتمكن من التنفس. لذا، فبالنسبة لامرأة في وضعها، فإن التعاطف الأقل هو ماتتوقعه من قبل شخص من جنسها بالذات.

«أوه! أنيتا» كان بالي مندهشا لرؤيتها لدى فتحه الباب.

«هل يمكنني الدخول؟»

كان بالي مندهشا لرؤية أنيتا لكنه كان سعيدا أيضا، وربما لذلك لم يلحظ التأتأة في صوتها. وضع يده بألفة شديدة على كتفها وأخذها للداخل.

كانت أنيتا ترشف الشاي وهي جالسة هناك عندما سألت، «بالي، هل أستطيع البقاء في بيتك لأيام قليلة؟»

«بالأمس كان لدينا ديوالي*» أجاب بالي، «لكنني أشعر كما لو أن اليوم ديوالي كذلك. بعد الشاي سأشعل المصابيح وأفجّر المفرقعات النارية أيضا»

كانت أنيتا تقاوم، إلا أن هذه الإجابة دفعت بالدموع إلى عينيها. أراق بالي شايه لمرأى دموعها، وهتف، «أنيتا أنت متكدرة! أين إقبال؟»

«أأبدو متكدرة؟» اختلفت شفتاها عن التوافق مع عينيها في ابتسامة متحدية. حدق إليها بالي بدهشة.

تابعت أنيتا، «في الحقيقة لديّ صداع شديد. ربما كانت الرحلة...»

«لِمَ لم يأت إقبال معك؟»

«لم يأت»

«استلقي إن كان الصداع شديدا. هل أعدّ لك فراشا؟»

«من فضلك»

---

* احتفال بالمصابيح آخر أكتوبر.

لاتزال أنيتا تتصور أن آلام رأسها إنما بسبب حرارة وغبار الرحلة.

لكن حالما رقدت في الفراش، أدركت أن سلسلة تفكيرها تشد على كل عصب من رأسها.

«سأحضر طبيبا إن كنت تشعرين بوجع». قال لها بالي.

«سيتكفل به شيء من النوم.حقيقة، لست في حاجة إلى طبيب»

لم يكن العشاء جاهزا بعد، فذهب بالي إلى المطبخ ليرى بنفسه. طبق واحد كان جاهزا. فأمر الطباخ ليضع منه شيئا في صحن وقدمه لأنيتا مع قطعتين من الخبز.

«حتى لا أوقظك فيما بعد، أنيتا. خذي شيئا من الخبز الآن»

لم تكن أنيتا جائعة لكن قضمت شيئا لإرضائه، ثم راحت في النوم.

عندما نهض بالي في الصباح، كانت أنيتا نائمة. مشى على أصابع قدميه بهدوء إلى جانب فراشها ولمس جبهتها. غادر مرتاح البال. لم يكن لديها حرارة مرتفعة.

مرّت فترة من الوقت وأنيتا مازالت نائمة. كان بالي قد أعدّ بعض الشاي وتوجّه إلى أنيتا كي يوقظها. وقعت عيناه على قصاصة ورق بجانب مخدتها.

لم تخبره أنيتا أي شيء، لكن حديث الليلة البارحة ترك بالي قلقا. جرت عيناه على الورقة، وقرأ:

«اشرب كأسك وحدك، وإن كان طعمه كَدَمك ودموعك، ومجِّد الحياة على هبة العطش، إذ من دون العطش لَا يكون قلبك غير

شاطئ لبحر عقيم، حيث لا أنشودة ولا تيار»

خفق قلب بالي بسرعة.هناك قلم قرب الورقة. الواضح أن أنيتا استيقظت ليلا ووضعت هذه السطور. لكن رعبا مفاجئا استولى على بالي. هل من الممكن أن تكون أنيتا قد ابتلعت شيئا يقضي على حياتها؟ فرت عن شفتيه صرخة رعب. «أنيتا!»

أفاقت أنيتا بفزع.

«الحمد للّه أنك حيّة»

«ماذا جرى، بالي؟»

«كنت خائفا...»

«رأيت كابوسا؟»

كان ردفعل بالي المباشر على سؤال أنيتا ضحكة فورية، لولا أنه فكر بقصاصة الورق فاستحال وجهه قاتما.

«ما الذي تخيلت؟» عاودت أنيتا السؤال.

«خفت أن تكوني أخذت شيئا أثناء الليل»

«فقط الطعام الذي أعطيتنيه في الطبق»

«الحمد لله إنك تضحكين»

«ما الذي توقعت؟ أنني تناولت سما في الليل؟»

«كنت خائفا...»

«كلا، بالي. لو أردت تسميم نفسي لما أتيت إلى بيتك الليلة البارحة. لن أورّطك في أي إشكال»

«لكن، أنيتا...»

«نعم، ما الذي كنت ستقوله ؟»

«ما هذا الذي كتبته في الليل؟»

تطلعت أنيتا إلى الورقة وابتسمت.

«ما هي النكتة ؟» سألها بالي.

«لا شيء. مسرورة لأن الحياة أعطتني هبة العطش، ليس إلا. انظر ما كتبته هنا، ومجِّد الحياة لهبة العطش»

«لكن ماذا عن هذا الجزء. اشرب كأسك وحدك، وإن كان طعمه كدمك ودمعك؟»

«وتلك حقيقة، أيضا»

«هل وصلت إلى هذا الحد، أنيتا؟»

لم تقل أنيتا شيئا ولكنها استمرت في تحديقها بوجهه. وبدا لبالي، في عينيها، أن الرؤية مضطربة.

«أنيتا؟ ما جرى لك؟»

«إنه شيء في رأسي»

«لماذا؟»

«شيء يمزق أعصابي إربا»

«لا تنهضي أنيتا. استريحي. سأنادي طبيبا»

«لا أريد طبيبا، بالي. أحضر رشمي هنا إن استطعت»

«رشمي؟»

«نعم، بطريقة ما...»

«سأحضره أيضا. لا تقلقي أنيتا. دعيني أحضر الطبيب أولا»

«الطبيب يؤجل. أحضر رشمي هنا أولا، فقط مرة...»

لم تكن أنيتا لتعلم ما الذي يجري لها. كان ثمة خفقان ملحّ داخل رأسها. تمكنت أنيتا من السيطرة على صوتها بقدر المستطاع، ثم كان بالي واقفا فجذبته إلى كرسي بجانبها وقالت، «استمع إلي يا بالي»

«نعم؟»

«إن مت...»

«ما الذي دهاك، أنيتا؟»

«لا شيء. كنت أقول، فقط، في حالة...»

«لا أريد أن أستمع إلى هذا النوع من الكلام»

«كلا، إنه مهم جدا. لابد أن تستمع... وتتذكر أيضا» وبقي بالي صامتا.

«إن حدث وقابلت إقبال...»

«إقبال؟... إلى أين ذهب؟»

«لم يذهب إلى أي مكان»

«وبعد؟»

«قد لا أراه ثانية. لهذا أقول لك...»

«لكن، أنيتا. لِمَ لا ترينه؟»

«لِمَ لا تصمت، بالي، وتستمع إلي؟ تستطيع أن تقول له إنني لست غاضبة»

«أنيتا!»

«إنني أقول لك الحقيقة، بالي. لو لم ألتق بإقبال، لما تعرّفت على أوج الإنجاز الإنساني. كنت سأعيش وأموت، وأنا في عالم من صنع الخيال»

«لكن، أنيتا!...»

«دونما لكن... بالي. إنني أتكلم فقط عن تلك الأيام من حياته التي وهبها لي»

«والبقية؟»

«أنت لا تفهم، بالي. لِمَ كان عليه أن يتحمل أعبائي؟»

«لكنك، من أجله...»

«لم أقم بأي شيء من أجله. كل ما فعلته كان لصالحي. لذلك ليس لي عليه مأخذ»

بعد ذلك، لم تع أنيتا متى نهض بالي وخرج. كل ما تعرفه أن رأسها كان مثل قطن أخذ من مخدة ووضع في آلة تمشيط.

الفصـــل التاسع عشر

أخذ رام بالي وقتا طويلا قبل العودة إلى البيت. كان يتحرك بعجلة شديدة في كل مكان حتى أنه في مكان ما أعطى سائق التاكسي ورقة من فئة الخمس روبيات ونسي أن يسترد الباقي، وفي مكان آخر دفع قيمة شيء من العنب وترك المحل دون أن يأخذ الكيس معه، والآن، فقد ارتطمت قدمه بعتبة الباب وآلم أصابعه. وحتى هذا الوقت، حين وقف إلى جوار أنيتا، يشعر فقط أنه تأخر كثيرا جدا.

حاولت أنيتا أن ترفع رأسها عن الوسادة فتقعد، لولا أن رقبتها ناءت برأسها، فتركته يرتد على المخدة.

«يبدو عليك حزن شديد، أنيتا»، قال بالي ذلك وهو يأخذ كرسيا إلى جانبها.

«ما هو الحزن، بالي. عندما تدير السعادة ظهرها إلينا، نقول إننا حزانى» وومض شيء مثل الابتسامة على شفتيها عندما لاحظت الباب مشرعا، فتساءلت، «رشمي؟»

«إنه قادم...»

«حقا؟»

تذكّر بالي شيئا فنهض عن الكرسي وقلّب بعض الصفحات بإبهامه داخل الخزانة.

«هل أطلعك على رسالة، أنيتا؟»

«رسالة من؟»

«رسالتي.كتبت لك رسالة ذات يوم، ولم أرسلها. كان ذلك منذ زمن بعيد... السنة الماضية في الحقيقة»

«إن كنت كتبتها، لِمَ لم ترسلها؟»

«فكرت أنك سعيدة جدا، فلا ينبغي أن أكتب لك رسالة كئيبة»

«ماذا قلت في الرسالة؟»

تناول بالي ورقة مطوية ووضعها بين يدي أنيتا. حاولت أنيتا التركيز فتعذر على ذهنها التمعّن. أعادت إليه الرسالة قائلة، «اقرأ لي أنت»

«يوم كتبت هذه الرسالة، كان قد ران على قلبي عبوس ثقيل كالضباب، لم أدر لماذا؟ مع أنني واصلت القول إلى نفسي: لابد أنك كنت سعيدة جدا في تلك الأيام»

«كنت في الحقيقة سعيدةجدا، بالي. لكن اقرأ لي ما كتبت»

عاد إلى الورقة، «إنه لمحيط جُنَّ بموجه المسحور، وأبحر من فوقه قارب ضئيل البدن. ركبت أنت على القارب، وأنا أقف على الرمال أهتف بصوت مبحوح، حظ سعيد وعساك أن تجدي شاطئا. يا إلهي! يا إلهي!... ذلك فزع مروع يلم بي. ظله الأشيب يلتحم مع بريق سعادتك الذهبي، بينما حواشيه الرثة السوداء تبدو كأجنحة الغراب. إنه لمشهد مريب!»

جاءت الدموع مدرارة إلى عيني أنيتا «لكم أنت رائع يا بالي!»، قالت ذلك وهي تتمسك بيده.

كان هناك صوت لخطوات. التفتت أنيتا تجاه الباب بانفعال ولهفة. «رشمي!»

«أظن أنه الطبيب»

نهض بالي وذهب إلى الباب. ومن هناك نادى إليها، «إنه ولدك قد جاء يا أنيتا. انظري كم أصبح كبيرا»

«رشمي!» جاء الصوت من فم أنيتا كريح هبت من كهف سفلي. هبّة من النشاط جعلتها تنهض جالسة، ورد فعل سريع قسرها فانهارت،مرهقة.

«مامي!» جلس رشمي على السرير إلى جوارها. وضع رأسه على صدرها.

أينعت زهرة في إهاب أنيتا تلك اللحظة، وانتشر عبيرها خلال أروقة روحها المعتمة.

فُتح الباب ثانية، وهذه المرة كان الطبيب. عندما دخل وفرّق بين أذرعة الأم والولد المتعانقة ليّجس نبضها،جعله تعبير على وجهها يشعر كما لو أنه ضربها.

فحصها الطبيب بعناية، ثم أخذ رام بالي على حدة وقال، «لقد دعوتني متأخرا. هذه حالة نزيف»

«هل ننقلها للمستشفى؟» سأل بالي باضطراب.

«المريضة واعية حتى الآن. لكن لن تكون كذلك بعد دقائق قليلة... خذها للمستشفى بأي وسيلة، لكن حين نصل إلى هناك...»

أغمض بالي عينيه بفزع.

«لابد أن ذلك كان قبل طلوع الصبح بساعة أو نحوها، عندما بدأ لديها النزيف الدماغي»

عندما عاد الطبيب إلى جوار سرير أنيتا مع بالي، كانت تحدق بثبات إلى رشمي الذي يقف إلى جانبها بنظرة تساؤل عميق في عينيها.

«جئت؟» كانت تقول ذلك.الكل استطاع أن يسمع كلماتها على الرغم من خفوتها. استمرت أنيتا في التحديق إليه وابتسامة بهيجة تنتشر على شفتيها. تحركت شفتاها المكللتان بابتسامة ثانية، «لكم أنا محظوظة... فقد حصلت على كليكما، أنت، ورشمي كذلك...»

هز رام بالي ذراعها بقلق وأشار تجاه رشمي سائلا «من هذا، أنيتا؟»

ردّت أنيتا بنظرة غريبة، كمن يقول، «لماذا، ألا تستطيع أن تصدّق بأنني محظوظة؟»

هز بالي ذراعها مرة أخرى، مشيرا إلى رشمي، ومعيدا سؤاله، «هل تعرفت عليه، أنيتا؟»

«نعم. عرفته... ساجار...»

كان عَرَق الموت يغطّي حاجبي أنيتا، وقطرات الترشح تنتشر عبر جبهتها. آخر وميض من الضوء في عينيها بدا وكأنه يقول، «طالما أن امرأة، تبحث عن حقيقة الحياة،لا يمكنها أن تحتفظ بطفلها وحبيبها، فإن مصيرها سيكون مثل مصيري!»

هوائي

أمريتا بريتام 1971

العنوان الأصلي: Aerial

ترجمة: سليمان الخليفي

ترجمها إلى الإنجليزية: Prabhkar Machwe

مراجعة: عامر الزهير

«الفتاة الجميلة أشبه بالنغم.»

... ربما كان اسمها مختلفا بالنسبة لأناس آخرين، ولكن بالنسبة لي، فإن اسمها «أنغام!» ما الذي قلت؟ ماذا كانت بالنسبة لي؟ حسن، لست واثقا مما تعني أنغام لأي إنسان. كلا، لست أحاول أن أراوغ... إن استطعت أن تتابع ما أقول، فإنني سأحاول أن أوضح. حينما أسمع لحنا، فإنه لا يحتاج أن يطلب ترخيصا من الأذن للدخول، ولا الأذن تطلب منه كذلك. إنه فقط يلامس الأذن ويدخل عبر الأعصاب، فيصل القلب. وهناك يتحول إلى نَفَس الحياة الخالص... ويستقر كذلك إلى الأبد.

أحيانا يتكلم، وقد يترجع صداه في الظلام، وأثناء الساعات المتأخرة من الليل، أو متى ما أراد ذلك. إنه يذكّر الإنسان بوجوده. هذه التذكرة تصبح علاقة بين الاثنين. أنا لا أعرف اسما مغايرا لها، وربما لم يكن لها أي اسم إلى الآن.

إنك تبتسم، حسنا. لم يحلّ الظلام بعد، لكن الليل قادم. إنها توشك على الإظلام... لا أتبيّن وجهك. فجانب من النهار مازال يتلكأ بالسماء. عندما كنت ماشيا في اتجاه هذا المكان، رأيتني وأنا أومئ إليك حتى تأتي إلى هنا وتجلس معي.

حتى بين الأطلال، ما ينفك الناس يحاولون أن يعيشوا مع إيهام الحياة. إنهم يتحدثون مع أي عابر سبيل، ملطّفين من وحدتهم ولو للحظة. كلا، لن أسألك من تكون. لست رائقا لأسأل أي واحد عن أي شيء. ولست مستعدا لأقول لأي واحد أي شيء. ولكن أنت الذي جاء إلى هنا وجلس معي... فاجلس إذن. كلا، لا أمانع. حقا... إن شئت فاجلس. لست في حاجة إلى أن تسأل. أوه، لست وحدك؟ أولئك الناس هناك.. هم معك؟ إنهم يتطلعون إلى هنا. لا تقلق، سوف ينتظرونك.

ماذا قلت؟ يريدون أن يأتوا ويجلسوا معنا؟ حسنا، نادهم، لا أمانع. لكن، شيء واحد: ما أفكر فيه أنك أسأت فهمي. أستشعر ذلك من طريقة ابتسامتك.

أنت تأخذني على أني عاشق بائس في أسمال بالية. كلا، لست محبّا مجنونا... لست مجنونا بتاتا. إنني أحتفظ بكل جوارحي.

أشرت إلى ذلك القبر. تريد أن تعرف من دفن هناك، أهذا ما قلت؟ نعم، إنه ضريح أنغام! ليس الضريح فقط للجسد الميت. فقد يكون للصمت، أو لعدم المعرفة، أو للحزن، أو للضعف، أو لأشياء عدة...

«البنت الجميلة هي مثل النغمة»

نعم سيدي، أصبت. كيف يمكن للأنغام أن تموت؟ أحيانا تكون صاخبة بحيث تسمع بوضوح تام. وفي أحيان أخرى تكون خافتة بحيث يستحيل سماعها.

إن استمعت باهتمام، فقد يمكنك سماعها... ولكن عليك أن تنتبه جيدا. قد لا تحجبها الريح. ماذا قلت؟ لا تسمع أي شيء..؟ حسنا إذن، توقف... سأفعل شيئا لأجل ذلك...

استمع جيدا. لا تسمع أي شيء حتى الآن؟ أنت تبتسم. تظن أنني مجنون. لا شيء مجنون هنا، يا سيد... ولست ثملا كذلك. أنت مخطئ.

لكنني أرغب في سيجارة، إن لم تمانع دعني أرى إن كان لدي واحدة في مكان ما.

لدي واحدة... ولو كان لدي أكثر لقدمت لك واحدة. لكنك لست

وحدك، وسيجارة واحدة لن تكفيكم. ماذا تقول؟ ما عليّ أن أشغل بالي بكم؟ لا تحتاج إلى سيجارة؟ حسن، لابأس... ما بإمكاني عمل أي شيء للحصول على واحدة لك الآن. إذن أفهم من ذلك أنك لا ترغب في هذه الأخيرة؟

الآن، ما الذي تريد أن تعرفه بالضبط؟ مع تلاشي النشوة، تبدو أول نفثة من السيجارة كأحلى شيء في الدنيا. لم أدخن طوال اليوم. لكن الحديث معك لا يشعرني أنني ثمل... ولكنني أفضل الآن. ليس هناك مسألة جنون...

أنغام؟ حسن، أنصت جيدا. تستطيع أن تستمع إلى النغم بأذنيك. فمن أنا لأقول... كلا، لم أعزف اللحن. أنت محق عندما تقول إنه لابد من موسيقي دائما حتى يعزف أي نغم. لا أنكر ذلك. كل ما قلته هو أنني لم أغن أو أعزف هذا النغم.

ماذا تقول؟ من أنا؟ إنني مجرد شعور معلق في الهواء... كلا، لست حتى شعور... مجرد قطعة سلك... مجرد هوائي!

لا أستطيع أن أتدخل بأي صوت، أبدا... ولا أستطيع أن أغير زمنه، أو الكلمات. لا أستطيع أن أتدخل مع أي شخص في حنجرته أغنية، أو بأغنية لابد أن تُغنىّ. كل ما أستطيع فعله هو أن أنظّم الصوت عندما لا يستطيع سماعه أحد، وأستطيع أن أصفّيه للأفضل. نعم، أستطيع أن أضمّه في كفّي وأرسله. ما الذي يمكن لهوائي أن يفعل أكثر؟

ماذا قلت؟ الإنسان، على أية حال، هو إنسان. كيف يستطيع تغيير الآلة الموسيقية بتحريك يده إلى الأمام؟ هل يستطيع أن ينصح أي واحد بتغيير قرار الأغنية؟ لقد قلت شيئا ساذجا وغريبا يا سيد. أعتقد أنك لم تلتق بالعديد من الناس. إن كنت فعلت، فلابد أنهم كالأجهزة التي تقف وتقول خطبا في الملتقيات.

هناك نوعان من الناس في هذا العالم. أقصد الناس الحقيقيين. أنا لا أتحدث عن الأجهزة وما أشبه. النوع الأول محب، والنوع الآخر هم الذين يجعلون من أنفسهم محبوبين. فقط نوعان. نوع من الناس يتحولون إلى أجهزة. نعم، مجرد أجهزة ذات أوتار، يمكن أن تلمس أو تنقر وتدوزن لأي مفتاح تشاء. تستطيع أن تحصل على أي «راجة»* منها. نعم، نغمات فرحة جدا وضاحكة... وأخرى باكية... أولئك هم الناس الذين يحبون. وأطلقت عليهم تسمية أنغام.

هي كانت واحدة من أولئك. والذين سأدعوهم بدلا من ذلك بالآلات. لكن عندما رأيتها في المرة الأولى، كانت نحيفة وجميلة، ومن دون تفكير وجدت نفسي أناديها «أنغام». ثمة ذبذبة في جسدها كالأوتار في الآلة، وأظن أنها لم تُخلق لكي تَعزف على آلتها الخاصة، أقصد، أن بإمكانها فقط أن تصبح آلة ولا تستطيع أن تكون اليد التي تعزف النغم عليها... أو تكون الصوت الذي يصدر عنها.

كانت جميلة جدا... وحمقاء أيضا. الناس الذين يحبون هم شديدو الحمق. يسلمون مفتاح كنزهم لأحد الغرباء، وبعد ذلك، ولأنه قد ينفق درهما واحدا منه، فإنهم يبحثون حولهم ليسلموا المفتاح إلى شخص آخر.

إنهم لا يعتبرون ثروتهم الخاصة كثروة أبدا، وهذا سر جمالهم... حماقتهم هذه هي التي تجعل الآخرين يحبونهم.

النوع الثاني من الناس، والذي ذكرته منذ دقيقة، هم أولئك الذين يجعلون أنفسهم محبوبين. إنهم أباطرة على ثروات الناس الآخرين. إن لم أرد أن أقول هذا بطريقة مهذبة، فإن بإمكاني أن أقول الحقيقة المرة ببساطة: هؤلاء الناس أفاعي حقيقية. أفاعي تربض على الكنوز. إنهم لا ينفقون الثروات الخاصة بعقل أي كان أو جسده، ولا يسمحون لغيرهم بذلك. تلك هي الحقيقة، وهي مرة جدا، أقر بذلك. قد

* نغمة واحدة من صيغ الموسيقى الهندوسية التقليدية. ارتجال على نغمة الراجة التقليدية.

يهولك ذلك، ولذا دعني أبسّطها بطريقة مختلفة. نعم سيدي، هذا النوع الآخر من الأفراد هم الأيادي التي تلعب الألحان على الآلات. ومتى أرادوا، نفضوا الغبار عن الآلات، وأخذوها بأيديهم وضبطوها. ثم تلمسها أصابعهم برقة ويحصلون على نغمات حلوة منها. وعندما يرغبون، فإنهم لا يلعبون ألحانا مفرحة، وإنما يصدرون ألحانا مفجعة... نعم، عندما يرغبون، فإنهم لا ينظرون لتلك الآلات لسنوات. إنهم يبقونها في زاوية مغبرة وينسونها. وهكذا ترقد الآلة المسكينة مثل جثة. ولكن هناك فرقا بين الجثة العادية وهذه الآلة. فهي قد تصيح وتبكي، ولكن الجثة العادية لا تعود إلى الحياة. أما هذه الجثة فغير محظوظة إطلاقا، غير محظوظة لأنها لا تستطيع أن تموت مرة واحدة فقط. مكتوب عليها أن تموت ثانية وثالثة. وحتى بعد إهمال الأيام، والشهور، أو حتى السنين، وإذا ما لمسها مالكها وداعبها بحنان، فإنها تعود للحياة من جديد.

لابد أنك تدرك الآن ماذا قصدت عندما ذكرت النوعين من الأشخاص. إنها لمسألة مختلفة أن يغير أولئك الأشخاص أدوارهم أحيانا أو يتكفل القدر بتغييرها... ماذا قلت؟ أنا؟ أنا لست واحدا من هذين النوعين. لم يقصد بأن أكون آلة ولا يدا تتعامل معها. ماذا عنك وعني؟ كلانا بشر، تماما مثل العديد من الأجهزة: أنت، يا من تستمع في وقت فراغك لقصة عن ماضي إنسان، وأنا، أنا كمجرد هوائي يضبط ويكبّر صوت أحدهم... إنني محق عندما أقول إنني وإياك نوعان مختلفان من الأجهزة، مثل الرجال... أنت في وقت فراغك تستمع إلى ذكريات أحدهم، وأنا هوائي أساعد على تنظيم النغمات الصادرة عن الآلة... إنني محق في القول بأنني وإياك بشر، مجرد نوعين من الأجهزة.

قد تصبح حزينا لدى سماعك قصة أحدهم، أو لعلك تأرق هذه الليلة... لكنك غدا ستشغل نفسك بالعمل. ولكي تنسى هذه الحادثة

برمتها، ستعمد إلى نزعها مثل قميص كثير الوخز شائك. وأنا... متى ما أردت أنت أو أراد أي شخص آخر... سأقوم برفع درجة الصوت وأدعك تسمع القصة. لكنني لن أتمكن من تغيير نهايتها، وعندما تستمع وتنصرف، أو يستمع أي واحد ثم ينصرف، فإن هذه الألحان ستصمت بعد أن تكون قد تضمنت مصير كل تلك الأنغام. وسأكون معلقا في الهواء كسلك هوائي... حسن، كما تقول. رجاء استمع لما تريد الأنغام أن تقول... أية اعتراضات يمكن أن تكون لدي...؟

ذات مرة كان هناك تلك الآني وذلك الأنور. وذات يوم فيما كان أنور يتطلع في عيني آني الحالكتين، فكّر بأنها الشاطئ لمحيط حياته. الشاطئ دائما مكان آمن... يستطيع المرء أن يجلس في الشمس على رماله الرطبة لساعات، يلعب بالقواقع، وينصب سيقان الخيزران، جاعلا منها عريشا من فوق رأسه يحميه من هبوب الريح والمطر. الشاطئ هو الزوجة، والعريش هو البيت، والقواقع هي الأطفال.

كان لأنور كل ذلك: آني كانت زوجته، وشقة ذات ثلاث غرف في ضاحية ورلي في بومبي، وولد عمره سبع سنوات اسمه سلام. لكن أنور كان يرى شيئا يتخايل في محيط حياته ملأه بالرغبة في المغامرة، فهو وإن كان مضطرا للاقتراب من الشاطئ، فإنه لا يرغب في الوصول إليه.

وفيما كان أنور على وشك أن يترك فراش سكرتيرته ليز، بزغ لون عينيها الزرقاوين وانتشر على ستائر الغرفة بطريقة شعر معها برغبة غريبة في السباحة والغوص في المحيط. شعور من أعماق الماء، مخيف ولا يسبر غوره.

ولدى نومه في فراش ليز، لا يتبادر إلى أنور شعور من ينام في فراش امرأة. وعندما يلامس زنداها الأبيضان النحيلان أو نتوء

صدرها جسده، فإنه يشعر بأن السمكات الغضة التي تسبح في البحر ما فتئت تلامسه. لا يرغب في أن يُحضر تلك السمكات إلى الشاطئ، ولعله يدور في خلده، سواء بوعي أو دون وعي، أنه متى وصلت السمكات إلى الشاطئ فإنها ستموت.

ووقتما يكون مع آني، فإن أنور لا يكره الشاطئ، وإن انتابه عليه شيء من الغبطة. في ذلك الوقت، يشعر، وعلى الرغم من اقترابه من الشاطئ، بأنه يظل لا يرغب في الاقتراب منه. بعدها، وكما يحتمل أن يلامس أحد ما الشاطئ ويداعبه، فإنه يقف في مياه البحر راغبا في العودة إلى الشاطئ، ومحاولا دغدغته، مما يعني أنه يسأل آني:« افترضي أنني هجرتك...»

وآني تستلقي بهدوء، غير مبالية، وثابتة ثبات الشاطئ. يشعر أنور أنها لم تكن تستمع إلى ما كان يقول، وإن فعلت، فإنها لم تفهم جدية ما قاله.

ليس هناك خوف على الشاطئ، وإنما يُخشى على من يمضي إلى ما وراء الشاطئ. كان أنور يجادل نفسه، لكنه كان يعرف أن الحقيقة أكبر من هذه الحجة: المرأة شاطئ الحياة، والشاطئ يخشى المسافر الذي يريد ملجأ... والمسافر لا يخاف قدر خوف الشاطئ.

لقد أمضى أنور عشر سنوات من عمره مع آني. كانت بين الخامسة والسادسة عشرة عندما وقعت في حبه. كان مجرد تلميذ جامعي وسيم عادي، إلا أن حبها جعل منه شخصا غير عادي، وارتفعت صبيانيته إلى رجولة. كان أنور يدرك أن منزلة والدي آني الرفيعة لن تتقبله أبدا، ولذا تحدى حبها. «لن يكون لديك الشجاعة الكافية كي تتركي والديك وتأتي إليّ خلسة». وقد شطح عقلها أبعد من جمالها إلى درجة عدم رفض التحدي، أو حتى الاعتراف بعدم قدرتها على مواجهة الخطر. وبناء على ذلك، فقد دقّت بابه ذات ليلة في السكن

الداخلي و قالت، «أنور! قلت إنني لن آتي أبدا». ثم أصبح أنور هو المرغوب. وليس آني. وقفت خارج الباب، وارتبك أنور حتى أنه وارب الباب بينهما ووضع رأسه على ذراع الكرسي. راح يتعثر في اضطرابه، فهو على أي حال، بلا بيت يؤويها فيه، ولا عمل يكسب منه معيشته.

عندئذ قام صديقه بمساعدته. الصديق قد أحس بالحب بينهما منذ البداية. قام بإدخال آني إلى الغرفة وساعدها على الجلوس. أخذ أنور جانبا وتكلم معه. بعد ذلك استدعى والدة آني وحثها على قبول الزواج. تمت مراسم الزفاف، وتكفل والدا آني بمصاريف أنور الدراسية. لم يمض زمن طويل إلا وكان أنور قد أتم دراسته. أعد بيته وتدبر أمره. غير أن الصدع الذي حدث بين آني ووالديها بسببه لم يلتئم أبدا. كل العون الذي تلقته آني من جانبهما بدا فقط ليضاعف من التزامها نحوهما. وقد أدى الزواج من أنور إلى قطع كثير من العلاقات مع الناس.

والآن، وقد أصبح أنور مكتفيا ذاتيا، وهي مستقلة بما يخصها، فقد كفّت عن التطلع ثانية إلى عون والديها.

في أوقات كثيرة، عندما يأخذ أنور آني بين ذراعيه، فإنه يعمد إلى السؤال مداعبا، «ما شعورك؟ لو لم أكن رجلا شهما لتركتك مباشرة بعد الزواج. فما الذي كنت ستفعلينه؟»

وكانت آني في البداية كقطة مبتلة ثم غدت كباقة الورد بين يديه، تجيبه، «كنت سأموت.»

كان أنور يخشى تلك الآني التي خلفت كل شيء في الدنيا وراءها وجاءت لتقف خارج غرفته في السكن. لكنه أحب آني الأخرى التي كانت كقطة مبتلة ثم أصبحت كباقة الورد بين يديه. ولعله فكر في بعض الأحيان أنه من الغرابة بمكان أن يخشى الرجل الزوجة ذات

الإرادة، بينما يحب ضعفها. ولعله شعر بذلك دفينا في أعماقه عندما جاءت إليه. لم يستطع أن يتحكم في الموقف وقتها، أما الآن، فبمثل هذه الأسئلة الشاذة، إنما يريد أن يعطي الدليل على بطولته في محاولة لنسيان أو إخفاء تلك اللحظة المخزية.

حتى في هذا اليوم، ربما كان أنور يشعر بالخجل من نفسه. لقد نام مع امرأة أخرى ونقض إخلاصه لآني، وإن كان حتى الآن لا يشعر بالندم. غير أن وخزا عميقا كان في داخله جراء العار. وربما، ومن أجل أن يخفي هذا العار، أو حتى ينساه، قام بسؤالها، «ماذا سيحدث لك لو تركتك؟».

كان يفكر في أن آني سوف تصبح باقة ورد بين يديه ثانية، تلمس عنقه بأنفاسها الدافئة، وتقول له بوجل ظاهر، «سوف أموت».*عندها يحضنها بين ذراعيه، يقبل شفتيها الباردتين، ثم يتمسك بذراعيها فيقيها من الموت... و... و... في هذا الصراع بين الموت والإنقاذ، وعندما يرى أهميته في عيني آني، فإن هذه البقعة المخزية ستنمحي.

وتطلع أنور مرة أخرى إلى عينيها السوداوين، فلم تكونا مغمضتين ولا مرتبكتين.

ومع شيء من الخوف، أكد أنور، «لست أمزح، إنني أفكر جدّياً في ذلك». بعد ذلك، فكّر أن كل ما قاله لم يكن كافيا. وليجعلها تدرك جدية المسألة، أضاف، «لاشك أنني أحببتك، لكن ذلك كان من أمور المراهقة... حب أحمق... وحتى الآن فأنا ...» ولم يذهب إلى أبعد من ذلك، لأنه لم يعرف ما ينبغي أن يقول. هل ينبغي أن يقول إنه لا يزال يحبها، أو يقول إنه مازال زوجا مسؤولا. شعر بلسانه يتعثر. كلا، ليس لسانه، بل تفكيره.

«مهما حدث، فلن أموت». كانت كلماتها واضحة وبلا تردد. غير أنه لم يصدق ما طرق سمعه. فالتفت شاحبا وتطلع فيها.

«ماذا قلت؟»

«مهما حدث، لن أموت». أعادت.

«لكن ماذا ستفعلين بعد ذلك؟» سؤال غريب يتبادر عنه، فلاشك أن إجابة آني أربكته بشدة. فإن لم تمت بعد الانفصال عنه، فما الذي بوسعها أن تفعله؟

وبينما هو يتطلع إلى آني، أخذ يفكر في أن هذه ليست آني التي كان ينظر إليها كل يوم في العشر سنوات الماضية. إن هذه آني مختلفة أخرى تقف أمامه.

ثم شعر أنور بأنه قد رأى هذه الآني من قبل - مرة واحدة - عندما جاءته وهي في الخامسة أو السادسة عشرة ذات ليلة. لعله لم يكن في حاجة للتعرف إلى آني هذه، بيد أن أفكارا محددة في داخله تقول: إن الشجاعة التي أظهرتها في المجيء إليه قد تكون هي الشجاعة نفسها التي تحتاجها لتتركه.

لآني نوع من الجمال غير المألوف. لم تكن شقراء، لكن كل عضو في جسدها قد نحت بإبداع. شعرها الملتوي على جبهتها لا يمكن التحكم فيه، كما تبدو عيناها الواسعتان السوداوان أحيانا كالأهلة المشعة وقد انحدرت من رأسها ومن خلال شعرها. كثيرا ما أصيب أصدقاء أنور الهنود والأجانب بالدهشة لدى النظر إليها، كما أبدى كثير من الناس ملاحظة «جمال تاريخي». وهذه الملاحظة أصبحت اسم آني الآخر.

تطلع أنور إليها، إلى الطريقة التي كانت تقف بها، إلى توترها، ليشعر برغبة في أن يناديها بالاسم ذاته: «جمال تاريخي». وابتسم. وفكر أنه تحت ضغوط العالم في الخارج، فإن كل التوترات هنا تختفي.

أجابت آني، «ليس تاريخيا... بل من ما قبل التاريخ»

شعر أنور بأنه مهما كانت قيمة العبارة الأولى فإن قيمة الثانية تبقى أعظم. فالعبارة الأخيرة لم تقلل من التوتر، وإنما أصبحت جزءا منه.

سمع أنور هذه الكلمات منها للمرة الأولى وشعر بأنها أصبحت أصغر بعشر سنوات. كانت بالفعل امرأة من زمن ما قبل التاريخ، مجردة من كل صغائر التصرفات والتقاليد.

«آني...» لم يتفوه أنور بذلك إليها. وإنما كأنه، بالإبقاء على اسمها من أمامه، فلرغبته في أن يفهمه. وعندما عجز عن فهمه جيدا، ظن أن كل الفهم عديم المعنى.

تذكر أنه منذ عشر سنين خلت، وقعت آني في حب الوسيم، ذي الكتفين العريضتين، أنور. ولأنه لا يزال هنا، وقد نمت بنيته أكثر قليلا، على رجولة أكثر، ولذا فإنه فكر في أن يهب هذا الرجل إلى آني اليوم مع محاولة أن ينسى كل شيء في حرارة جسديهما المشتركة.

لكن أنور كان قلقا كونه بلا أية رغبة كي يجتذب آني إلى قربه. الدفء كان غائبا، فضلا عن شعوره بنوع من الخدر يزداد ويذيع في كامل جسده، وسيصل قريبا إلى دماغه.

وكمن يذكي نارا هامدة، حاول أنور تذكر كل تلك الساعات الماضية، عندما كان يغريه جسد آني حين تنضو ثيابها عنها. استفاق الفنان في داخله. كان الرسم بمثابة جنونه. في لحظات كهذه، اعتاد أن يضع قلمه الرصاص على الورق ويسجل جسدها في رسوم. وهناك يحدث أن ترفع حرارة فنه من حرارة عاطفته فلا يستطيع أن يحتوي نفسه، فيترك ورقه وقلمه ليحتضنها. تذكر أنور تلك الأوقات وشعر

أنه سيحس ثانية بالعاطفة نفسها. ولكن الخطر اليوم كان في كونه لايستطيع أن يتأثر بأي شيء.

ثم تذكّر ثانية أوقاتا عديدة يحدث فيها إهمال قليل، أو غضب قليل، أو شيء من الحمّى، أو حتى المجيء إلى البيت متأخراً في المساء، مما يجعل آني مضطربة جدا حيث اعتادت أن تخلد إلى جانبه لتصبح أشبه بباقة الورد. بتذّكره تلك اللحظات، استعاد أنور شعوره بالإثارة.

تطلع إلى آني. لم تكن خجلى، ولا ذراعاها ولهتين مندفعتين إلى ذراعيه. وكمثل الدفء الناشئ عن استعار النار يخمده نثار خفيف من الماء ، تلاشى فيه الدفء، وبدأ يحّدق في الجدران.

الجدران كانت خالية. ولو كان ثمة شيء عليها لاجتذبت انتباهه للحظة. الجدران الخالية هي أشياء مريعة. كثير من الأفكار تخال عليها بحيث يجن المتطلع إليها. وأنور، وقد جنّ بأفكاره الذاتية، نظر إلى آني. لم تكن كذلك من قبل. إنها متماسكة. أصابه ذلك بضربة حقد مستعرة.

هذه هي المرة الأولى التي يحقد فيها على آني. كلاّ، من المحتمل أن تكون الثانية. شعر أن المرة الأولى كانت عندما تلقّت تحدّيه فجاءت إلى غرفته. وربما فكّر حينها أنه كان مرتبكا قليلا، لكنه يدرك الآن أن الحقد كان ممزوجا في ذلك الارتباك.

قد يتصرف الكثيرون بطريقة منافية للمعقول، إلا أن العقل دائما، وبطريقة ما، يظل مواتيا. كان أنور قد شعر بذلك أيضا، فأخذ يسأل نفسه: لماذا تكره آني، لماذا؟

وكان يتلقى الرد أيضا من نفسه. فكرهه ليس لآني، وإنما لذلك الجانب منها والذي لم يكن ضعيفا بذاته . لطالما أحب الجانب

الضعيف، وحتى الآن، علما بأنه لا يعرف ما إذا كان هذا الرد صحيحا أم لا.

ومع كل هذا العجز، لم يكن لديه بديل إلا أن يثير فيها تلك النقطة الضعيفة والتي سترغمها على المجيء إليه. كان أنور واثقا من أنه لو لامسها فسوف يعيدها إلى ذلك النمط الأصيل، سوف يفضي إليها بدخيلة نفسه، يقدم لها وعودا عديدة، ويطلب منها العفو.

القوة تنام، غير أن الضعف أيضا أحيانا ينام، فيصبح من الصعوبة إيقاظ أي منهما. فكر أنور في ذلك مرات عدة، ثم قال لآني بعد التفكير لبعض الوقت، «آني، ماذا تعتقدين... هل يحب الرجل امرأة واحدة فقط، وتلك المرأة مرة واحدة فقط؟ فمن الجائز أن يبدأ حب امرأة أخرى في وقت آخر»

«جائز... القيم تتبدل... والمستوى كذلك»

«على فرض أنني بدأت فعلا حب امرأة أخرى...»

«لن أقف في طريقك»

«ولكنك...»

«أستطيع أن أكون مجرد صديقة حينها، وليس عائقا»

فكر أنور بأن كل هذه الأجوبة كانت نتيجة لنوع من المثالية المبتذلة.

إنها لم تكن آني، وإنما شخصية روائية تتفوه بمثل هذه الجمل المصطنعة.

أراد أن يوقظها، يوقظ القلب الخافق لآني الحية. أصبح أكثر جدية وقال، «فإن طلقتك؟»

«إذا كانت تلك هي القضية، عندئذ أتصور، ما عليك إلا أن تفعلها»

«ولكن دعيني أقول لك شيئا واحدا ...»

«نعم..»

«سوف أُبقي الطفل معي»

اعتقد أنور بأن التصريح الأخير أشبه بوضع الدبوس على أكثر الأعضاء حساسية من وجودها، كاختبار لها. ظلّت صامتة. كان واثقا من أنه وجد موضعا حيث بإمكانه أن يكسر بأسها.

«إن كان سيحظى برعاية أبيه، فأنا راضية»

قالت ذلك وغادرت إلى الغرفة الأخرى. نظر أنور إليها بعناية فيما هي تنهض، لا أثر للانفعال على وجهها، لا دموع، لا احتجاج، فقط أمارة باهتة من الإجهاد.

مرة أخرى يشعر أنور أنه تناول الموضوع برمته على نحو خاطئ. وتذكر لحظة بعد أخرى من اللحظات العديدة عندما كان يصرّ للحصول على شيء منها وكيف كانت تبقى دائما هادئة وتكبت رغباتها. إن أصبح غاضبا بخصوص أي شيئ، فإنها هي التي تبدأ بالمصالحة. فكر أنور أنه ينبغي أن يُنصت للمرأة أحيانا، وهكذا، شعر أن عليه أن يكون لين العريكة مع غطرسة آني. وفي نوبة ضعف أمسك بهدوء ذراعيها.

«أنا لست شخصا سيئا، آني!»

«أعرف»

«لا أريد أن أؤذيك عن عمد»

«أنور أنت لم تؤذني أبدا». وجّهت كلامها بحرارة وحميمية.

غير أنه يظن بأنها مهما قالت الآن، فإنها تقوله من بعيد، وتنظر له من مسافة، وربما تراه على نحو أفضل مما هو عليه في الحقيقة.

أنور أراد أن يُنظر إليه فقط من جانب واحد، وليس من كل الجوانب، ولذا كان منزعجا. تراجع في وقفته وقال، «أنا سعيد لأنك لا تبكين أو تتشاجرين». قال ذلك مذكّرا إياها ببكائها سابقا وشجارها.

«عندما كنت أبكي، كنت لا أحب نفسي. كنت دائما أكره نفسي بعد ذلك. أما الآن فلا أريد أن أكره نفسي». قالت ذلك مختلسة النظر إلى عينيه، ثم دخلت إلى الغرفة المجاورة.

اعتقد أنور أن أمارة الإجهاد ربما تلاشت من على وجهها الآن وحلّت بدلا منها ابتسامة خفيفة. أخذ يفكر في أنه لم يحب أبدا آني هذه ذات الوجه الذكي، ولن يحبها. أحب فقط آني تلك التي التقت به سرا ذات مرة وانتفضت إزاء قسوة والديها، آني التي اعتادت أن تتمسك به بقوة بعد أن تثير غضب والديها، التي كانت تخاف أن تفقده.

شعر أنور أنه في اللحظات السابقة ذكر الطلاق لآني.. ربما كنت أوبخها فقط، كان يتفكر، لكنه الآن يريد الطلاق منها حقا. لكنها قالت إنها تريد الطلاق قبل أن تتاح له الفرصة ليقول ذلك. مهما قال، فقد كان محقا.

في تلك الليلة، كان العشاء معتنى به على غير العادة، بزهور وشموع. وفكّر أنور أنه في ذلك اليوم كان يحتفل بخيانته، خاطرة تداعت إليه من رواية فرنسية، حين ابتاعت البطلة كعكة خاصة ودعت زوجها ليشاطرها إياها، معلنة أنها للاحتفال بالمرة الأولى التي تمارس فيها الخيانة.

وضع أنور قطعة كباب في فمه، ولم يستطع أن يبقى على صمته. «فقط المرأة الفرنسية أو آني يمكن أن تعد احتفالا كهذا». ثم أضاف، «لكن هناك فرق بين المرأة الفرنسية وبينك يا آني، فالمرأة الفرنسية يمكنها أن تحتفل بخيانتها الخاصة، أما آني فتحتفل بخيانة زوجها. فليعش الفرق! لأن آني امرأة هندية!»

لم تجب. لاحظ إلى أي مدى هي جذابة! لعلها المرة الأولى التي يلاحظ فيها ذلك منذ زمن طويل.

أعاد ملاحظته السابقة، «جمال تاريخي!» أجابت بنعومة، «جمال ما قبل التاريخ» وكأنها تصوّب الجملة بالقلم الأحمر.

فكّر أنور أنه قد يمسك بزمام القلم الأحمر المتخيل ليخربش على الحروف الأولى من عدم ولائه كيما يتمكن دائما من حيازة ولاء آني. لكن ذلك كان ضربا من الخيال. لم يكن يريد أن تخالطه مثل هذه العواطف. ولكي يقي نفسه منها، فلابد، وكان يفكر، من أن يثبّت قدميه بقوة، بربطهما بحجر ما. هذا الحجر هو كلماته، «آني، إنك لم تسألي من هي المرأة الأخرى؟»

فكّر أنور أن يطلع عيني آني المستفهمتين على صورة لجمال ليز الخارق. كان يقرر ما إذا كان عليه أن يصف الشعور الذي يتلبسه من لمسه لليز، لكنه لم يقل شيئا. رشقته آني بنظرة لا مبالاة مباشرة، «في الحقيقة، لست مهتمة»

بحث أنور عن العون في الحجر، ومن الصعوبة الآن أن يحرر نفسه منه. وفكّر: المحيط فقط يمكنه أن يبعد هذا الحجر عنه. ولم يفلح. وفي سياق ذلك خطرت بباله ليز، وعيناها الزرقاوان، ولون البحر الأزرق الساجي من خلالهما على مدى ستائر الغرفة.

لم يمض أنور ليلته تلك في البيت، وإنما مع ليز. فقط تلك الليلة.

بعد ذلك، بدأت ليز بالمجيء إلى بيته، إذ بعد الليلة الوحيدة معها، عاد إلى البيت ليجد أن آني قد تركته.

لم يتأت له أن يعرف ذلك من خلال ملاحظة أو رسالة، فهي لم تترك أي شيء. لقد تركت الطفل... كنوع من الرسائل، رسالة غريبة بنص كُتب حديثا إليه كي يقرأه كل يوم. تركت شفاه آني علامة رقيقة على خد الطفل. قبلتها. غارت الإشارة عميقا في نعاس الطفل وأحلامه، فلم يتمكن أنور من سبر أغوارها. وفي اليوم نفسه، أرسل الطفل للعيش في مدرسة.

الناس لا يتحدثون في الشوارع بالسرعة نفسها التي تنتشر بها الإشاعة. سمع أنور أن آني بدأت مهنة في ناد نسائي، وأنه كان لديها عمل مكتبي وتركته، وعندما ذهب والداها ليعودا بها، سمع أنها رفضت. كان لديها أخ أراد أن تلتحق به في لندن، كما سمع أيضا أنها تسهر في ناد ليلي حتى ساعة متأخرة من الليل. وأخيرا، أن أحدا ابتاع شقة لها.

ذات يوم، جاءت سلطانة، إحدى قريباته، كي تراه بناء على إلحاحه. كانت على علاقة وطيدة بآني. عندما جاءت، لم تقل أي شيء عن آني.

كان على أنور أن يطرق الموضوع بتوبيخ، لشكوكه في أن سلطانة تلتقي بآني بانتظام.

«نعم، أراها. رأيتها بالأمس». علّقت سلطانة بلا مبالاة، ثم صمتت.

انزعج أنور، ثم بدأ الحوار من جديد، «الناس يقولون أشياء كثيرة عنها»

«دعهم» أجابت سلطانة بعدم اكتراث.

لم يستطع أنور أن يتمالك نفسه. كانت سلطانة على وشك أن تقف لتغادر، لكنه ضغط عليها لتبقى قليلا. كان منزعجا بلاشك عندما سألها، «اللعنة، لِمَ لا تفسرين كل شيء لي؟».

ضحكت سلطانة، «يا عزيزي، إنها لا ينبغي أن تُفسّر، وإنما ينبغي أن تُفهم»

شعر أنور كما لو أن أحدا صفعه، ليست سلطانة، وإنما الزمن. طأطأ رأسه إلى أسفل.

ولعلّها بدافع من شفقة، جلست ثانية وسألت، «قل لي ماذا تريد أن تعرف. سأحاول أن أطلعك على ما تريد معرفته، أيا كان الذي أعرفه».

«هل تذهب إلى نادي النساء ذاك؟»

«كانت لفترة، وليس الآن»

«هل لديها عمل؟»

«نعم، كان لديها ولم يعد»

«لم لا؟»

حدّقت سلطانة إليه للحظة بنظرة تمعّن ثم قالت مبتسمة، «لم أسألها، لكنني أظن أن ذلك يعود إلى عدم رغبتها في أن تلعب ليز دور مدير المكتب»

لم يوقف أنور القضية هنا. تجرّع ردّها بصمت ثم علّق، «لعلّها لا تشتغل بسبب أن شخصا غنيا قد أفرد لها شقة خاصة».

«ليس شخصا غنيا... وإنما امرأة. جدّتها... والتي باعت بيتها في إندور واشترت شقة هنا في بومبي. أوصت بها لآني»

«ولكنها لا تقيم مع والديها. فكيف تبرر بقاءها بمفردها؟»

«لأنها لا تريد أن تكون محاطة بعيون مستفسرة وألسنة. فما الذي يستطيع أن يفعله والداها؟ كل ما بإمكانهما أن يمنحاها هي النصيحة وبعض المجادلات، وهي عازفة عن أي نصيحة، أو جدال أو شفقة أو حماية،... وعن أي شيء»

«ما الذي تفعله طوال اليوم وهي وحيدة؟»

«ذات يوم كانت مذكراتها ملقاة على طاولتها مفتوحة فاختلست نظرة إلى إحدى صفحاتها، والتي تقول شيئا كهذا: «لا يوجد إلى الآن فرد حقيقي يستطيع أن يحيا ويستطيع أن يموت». لعلها تقوم ببحث عما يمكنك تسميته (الفردية)»

شعر أنور كما لو أنه تناول حفنة من الحبوب المنومة، وفي حال نصف يقظة سأل سلطانة، «لكن الناس تقول إنها تجلس في النوادي الليلية كل ليلة»

«صحيح. هناك معرض لرسوماتها اليدوية على القمصان والشالات مقام في أحدها. إنها تؤسس مركزا تجاريا في محلها... مركز آني التجاري»

كان أنور يأمل أن يسمع شيئا مختلفا عن آني، ولكن سلطانة أخبرته بما لم يرد سماعه. كان من الأفضل لو أنه لم يعرف شيئا، لأنه بذلك يستطيع أن يملك الشك في حقيقة ما يشاع دائما.

ضحكت سلطانة: «الدفاع يستريح. هل أستطيع أن أذهب؟»

كان أنور صامتا. ثم سأل: «كيف تفسر انفصالنا للناس الآخرين؟»

«يا إلهي يا كريم». أجابت سلطانة بحسم، «ومن يستطيع أن يسألها؟ إنها تخرس كل شيء يبدأ بجملة واحدة: «لست مدينة لأي أحد بأي تفسير»

وبسماعه لذلك شعر بالانسحاق. «إن لم تخبرك عن هذه العلاقة مع ليز، فما أدراك؟»

«اسأل خدمك. اسألهم لِمَ يتكلمون عن هذه الأشياء في الخارج. لعل آني لا تعرف عن ليز أي شيء. لم أخبرها أبدا، ذلك مؤكد. وأعرف حتى لو أنني حاولت، فلن تستمع. ففي هذه الأيام توقفت عن الاستماع كذلك»

في تلك الليلة، عندما جاءت ليز إلى أنور، كانت مرتدية قميصا ذا ألوان عدة تبرز عينيها الزرقاوين. لم يشأ أنور أن يسبح في زرقة تلك العينين، وإنما أراد أن يغرق نفسه فيهما، لقد أراد أن يغرق نفسه وهو مربوط بليز.

بعد أن نضّت عنها القميص ووضعته على طاولة قريبة، وقعت عينا أنور على العلامة فوق الياقة: مركز آني. أوشك أن يسقط الجسم الذي بين ذراعيه. شعرت آني بألم في ركبتها. نظرت إلى أنور وهي تدعك ركبتها وحاولت النهوض. لم ينظر إليها، وإنما إلى القميص. راحت تستعطفه مقسمة بأنه لم يكن هدية من رجل آخر، وإنما من أخيها. اشتراه من معرض. غير أن أنور لم يكن يستمع إليها، وكل ما قام به هو النظر إلى الاسم الذي فوق العلامة. كان ذلك الاسم يتمدد أكبر فأكبر، وينتشر على القميص، ثم على الطاولة، يغمر ظهر السرير، فالجدران.

«لست على ما يرام» قال لليز فجأة، وبإشارة من يديه، طلب منها أن تغادر.

ارتدت قميصها وذهبت. كلاهما، ليز وقميصها، بيد أن أنور شعر بأن اسم آني قد تحرر من علامة القميص وأخذ يدور مخترقا جوانب الغرفة.

* * *

يوم أو اثنان... كلا، أربعة أيام... انقضت، وأنور منقطع في بيته عن المكتب. سمعت سلطانة بذلك فعادت لتراه. ولدى وصولها، لم يفكّر في أن يفاتحها بأنه لو أن آني كانت هنا لتعتني به، لشعر بالتحسن.

كانت مندهشة كيف يمكن، خلال ثلاثة أيام فقط، لأي إنسان أن يصبح بهذا الضعف، ثم قال لسلطانة، كالمجروح: «إياك ومحاولة إخبارها بما حدث. ما الفائدة من جعلها تعود إلي بسبب من هذا؟»

غادرت سلطانة، لكنه شعر أن مجيئها على ذلك النحو قد عرّضه إلى بعض الضعف من داخل نفسه. كان هذا الضعف واضحا عليه كالجرح. لم يطق ذلك. أغمض عينيه وحاول أن ينام. في المنام وجد ملجأ، وكذلك حلماً.. حلما كانت تقف فيه آني قرب سريره تناوله الدواء.

استطال الحلم، فحاول أن يفتح ويغمض جفنيه للتأكد مما إذا كان نائما. لكن النوم كانت له اليد الطولى، واستمر الحلم على إزعاجه. لم يكن أنور غاضبا في الحلم، لكنه عندما أدرك أخيرا أنه في كامل صحوه، وأن آني تقف بالقرب من سريره، استشاط غضبا. لم يكن غاضبا من حضورها، وإنما لكونه طلب من سلطانة ألا تقول لها أي شيء عن مرضه.

«إن كنت قد عدت لأنني..» أخذ يتكلم وفي صوته عجز يحسّه المرء عندما يضع يديه على ركبتيه ويحاول النهوض.

«أنور، إن لم يكن هناك خطأ في مجيئي إلى هنا، فما الخطأ في ندائك لي؟» أجابته آني.

«هناك فرق بيننا، آني!»

«فما ذاك؟»

«أنت فخورة بحقيقة أنك غير خائنة لي أبدا...»

«الحب أو الإخلاص ليسا بهذه الهشاشة بحيث يُفقدان لمجرد لمسة لجسد إنسان آخر. لعل مرورهما، كلاهما، عبر جسد شخص آخر، يجعلهما أكثر صلابة، كما يتأتّى لعقل الإنسان لدى مروره بالأزمات. لكن كف عن الكلام عن هذه الأشياء، أنور، فلست على ما يرام»

«قد أتحسن عندما أفضي بها... واصلي الحديث... فمهما كان قد حدث... تقصدين أنك لا تمانعين؟...»

«كلا، لا أمانع»

«ربما تقولين ذلك عن شفقة»

«ليس لدي أي مبرر للإشفاق عليك. ولم أعط أيا كان أية فرصة ليشفق علي. وبإمكانك أن تثق بأنني لن أفعل ذلك في المستقبل»

«ولكن آني، أنت لا تفهمين. أنت تقولين ذلك لأنك تقفين على منصة عالية»

«أية منصة؟»

«على واحدة جد عالية فلا أحد يستطيع أن يلمسك... حتى أنني لا أستطيع أن أنهض كي أطالك وأنت هناك»

«أنور»

«لا شيء يمكن إصلاحه بيننا، آني»

«أستطيع النزول إليك، إن كان ذلك يريحك، إلى المكان الذي تشعر أنك فيه»

«ماذا تعنين؟»

«سأنام مع آخرين. لن أمانع. فلربما أصبحت على هذا المستوى الذي تظن أنك فيه»

«آني»، تطلع إليها أنور بحيرة شديدة. تذكّر شيئا قالته سلطانة... لا ينبغي أن تُفسَّر، ينبغي أن تُفهم... ومهما كانت المحاولات التي توسل بها كي يفهمها، فقد بدت أكثر مناعة. حتى وإن كانت لها علاقات، فإنها ستظل محتفظة بقوتها. «آني»، أعاد سؤاله، «لماذا تعودين لي؟»

«لم أعد كزوجة... فقط كإنسانة»

«ذلك يعني أنك لا تستطيعين أن تبقي معي... كزوجة؟»

«لا أستطيع البقاء معك كامرأة مكسورة، ذلك أمر مؤكد. يمكنك أن تدعوني زوجتك أو أي شيء تحب. وبحسب تفكيري فإن «زوجة» في هذا البلد عموما، تعني امرأة مكسورة»

«منذ متى شعرت بذلك؟»

«شعرت بذلك منذ تلك الليلة عندما جئت إلى غرفتك. رأيتني هناك وأغلقت الباب دوني، صرت مضطربا ووقفت أنا خارج الغرفة وحدي لمدة طويلة. وقتها فكرت في ذلك، لكنني في الحقيقة لم أدركه... لقد أخذ مني عشر سنين لأفهمه»

«لقد تغيرت. آني الأولى تلك...»

«أكرهها»

«لكنني أحببتها»

«لم تحبها أبدا يا أنور. فقط أعجبت بها»

«حسن، لقد أعجبت بها»

«لم تكن تلك آني الحقيقية يا أنور. لم تكن إلا آني المكسورة»

«أريد أن تعود تلك المكسورة»

خرجت تلك الكلمات من شفتيه، لكنه شعر بعد التفوه بها، أنه ما كان ينبغي له. تبادرت ابتسامة إلى شفتي آني وهي تجيب، «آسفة أنور»، لكنك لن تجدها ثانية»

شعر أنه الآن لا يستطيع أن يأخذ الدواء أو حتى الشاي من يدي آني. فسألت، «هل أغادر؟»

«نعم... أعتقد ذلك...» أجاب.

أدارت وجهها جانبا. لقد جاءت كحلم... وغادرت كحقيقة.

مرت أيام، ولم تستسلم آني. لكن نساء عديدات كن سيفعلن.

استحوذ على أنور نوع من الجنون، أراد أن يحطم كل شيء بمعونة المال، المنصب، أو ربما القوة.

مرت سنوات، وتجمّعت الحصى والحجارة من حول أنور، غير أن عجزه بقي كما كان. آني السليمة لم تغادر خياله، بينما لم يستطع أن يتقبلها على هذا النحو.

لو أنها استسلمت لرسبت مستقرة تحت أكداس الحصى هذه. وظل يضاعف من حجم هذه الأكداس، فيما كان الزمن يمر ويمر ظنا منه أن آني مازالت أبعد من متناوله. استحال مرهقا أكثر فأكثر مع مرور كل يوم، وحماسته لتحطيم كل شيء تتضاءل.

بعدها حفرت آني قبرها بيدها... على الأقل من وجهة نظر

أنور. لقد دفنت إلى الأبد. غادرت البلاد نهائيا، أولا إلى أخيها في لندن، ثم إلى مكان آخر، إما بمفردها، أو ربما بصحبة شخص آخر.

وعرف سلام ابن أنور كل شيء. أصبح الآن في شرخ الشباب.

كان معتادا على السفر لمدة شهرين - لا أعرف إلى أين - من كل عام.

وفكّر أنور في أنه ربما كان يذهب لرؤية آني، لكنه لم يسأل أبدا. حاول مرة لكن الولد لم يخبره بأي شيء. فقط أشار، «بابا! أحبها كما هي!»

كما هي.. كان أنور غاضبا من ولده جدا، لا، ليس غاضبا، كانت ببساطة مسألة حسد. ليس فقط تجاه ابنه، وإنما تجاه أي شخص آخر يستطيع أن يحب آني، تجاه أي شخص يستطيع أن يتقبلها، أو يجعلها تتقبله.

أحيانا كان أنور يفكر أنه مثل ابنه، وهل كان هو مثل شخص آخر... غير أنه لم يعد هناك وقت كي يكون شخصا آخر. أبصر قبرا أمامه... قبرا ليس فقط من الغبار...

هل سمعت الأنغام؟ لم تسمع؟ الآن لا يستطيع أحد الحصول على أي شيء من السماع. كيف سمعت عن هذه القصة؟ لقد رأيتها بأم عيني، وسمعتها بأذني. إنك لساذج عندما تسأل كيف لي أن أعرف الكثير مما يدور في بال أنور. ألا يعيش كائن بشري آخر دائما في إهاب كل شخص، أحد ما ليس بشخصية في أي قصة، وإنما مجرد ملاحظ لكل حدث؟ فأنور الأول كان شخصية في هذه القصة، ذلك الذي غنى الأنغام، ثم أخرسها. وأنور الثاني... مجرد هوائي.

المؤلف في سطور

آمريتا بريتام

واحدة من أكثر الكاتبات بروزا في مجال اللغة الهندية. تكتب باللغة البنجابية، لغتها الأم. ولديها ما يربو على الخمسين كتابا، شعراً وقصصاً، في رصيدها. وهي من أوائل الحائزين على «جائزة ساهيتا» الأكاديمية.

المراجع في سطور

عامر الزهير

- حصل على بكالوريوس الفنون المسرحية - جامعة أريزونا ١٩٧٨، كما حصل على ماجستير إخراج وإنتاج سينمائي من جامعة لويولا- كاليفورنيا ١٩٨٨.
- كاتب سيناريو ومخرج سينمائي.
- له ترجمات عدة منها:

- مسرحية «رحلة النهار الطويلة خلال الليل» للكاتب الأمريكي يوجين أونيل، نشرت ضمن سلسلة المسرح العالمي - وزارة الإعلام - الكويت.

- مسرحية «ضحية» للكاتب الأمريكي ماريو فراتي.

المترجم في سطور

سليمان الخليفي

- قاص وناقد وشاعر.
- ولد في الكويت سنة ١٩٤٦ في حي المرقاب.
- درس في كل من الكويت وأمريكا والاتحاد السوفيتي.
- عضو في رابطة الأدباء في الكويت منذ العام ١٩٧٢.
- في العام (١٩٩٢ - ١٩٩٤) شغل منصب سكرتير تحرير مجلة الثقافة العالمية التي تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- ساهم في العديد من المؤتمرات والندوات والمهرجانات المسرحية والثقافية داخل الكويت وخارجها.
- له العديد من القصص والقصائد الشعرية التي تم نشرها إلى جانب العديد من المقالات الفنية في النقد الأدبي والمسرحي.



هذا الكتاب يحتوي على قصتين تعكسان التطور الطبيعي لمسيرة الأدب الهندي المعاصر للكاتبة آمريتا بريتام حيث إن القصة الأولى «وجهان لحواء» تتحدث عن صراع المرأة والمرأة من أجل الفوز بالحب.

«لقد كانت المرأة الهاربة تركض باضطراب دون أن تتفوه بكلمة أو تلتفت مرة إلى الوراء، وشعرها المنفوش يتطاير لدى ركضها. لاحت الظلمة أمام ناظري أنيتا، ولكنها تجاوزت ذلك بإرادة ومجهود خارقين. إن دفقة من جزع حارق تجري في دمائها، لكن لا ينبغي أن تفقد أثر المرأة. ومنذ ذلك الحين، كلما جلست أنيتا الأولى إلى جانب زوجها، كانت أنيتا الأخرى مع ساجار. والمسألة الثانية أن أنيتا الجسد تكون موجودة حيث يمكن أن يبصرها أي كان، أما أنيتا غير التابعة للجسد فلا أحد يستطيع رؤيتها.

في البداية، اعتادت أنيتا الأولى على الاصطدام مع الأخرى. فهي تنهمك في شجار طويل، وجدل لا ينتهي، أما أنيتا الأخرى فقد تبكي أو تبتسم، لكنها تبقى صامته. على أن هذه الأنيتا ذكية الفؤاد، دموعها غزيرة، وكلماتها ناعمة جدا، حيث ينبجس تأثيرها في قلب أنيتا الأولى».

وفي القصة الثانية نرى نوعا جديدا من القصص الهندي للمؤلفة نفسها يمتاز بالشفافية والرمز، ولعل عنوان القصة «هوائي» يوحي بذلك.

ردمك ٩ ـ ٠٤٤ ـ ٠ ـ ٩٩٩٠٦

ISBN 99906 - 0 - 044 - 9

